

2269

3545

361

2269.3545.361

Fawzi

WZ1
Mamlakat al-Imam Yahya

[illegible]

DATE ISSUED

DATE DUE

DATE ISSUED

DATE DUE



32101 073552315

Mamlakat al-Imām Yahya
مملكة الإمام يحيى

مملكة الإمام يحيى

رحلة في بلاد العرب السعيدة
للكاتب الايطالى الذائع الصيت سلفاتور أبونتي

عربه من الايطالية

Jaha Fawzi طه فوزى

موظف بمحكمة استئناف مصر الوطنية
ومدرس اللغة الايطالية بمدرسة الفنون الجميلة العليا

حقوق الطبع محفوظة

١٣٦٦ - ١٩٤٧

مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر

كتاب

تتميم التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

تكملة في تاريخ التمهيد في تاريخ

بالتحفات لادبته

تقد

الاهراء

الى مقام صاحب الجلالة الامام يحيى بن محمد حميد الدين
محرر اليمن وأبى اليمنيين

أهدى هذا الكتاب

المعرب

7-20-50 SBF Quast

2269
3545
361

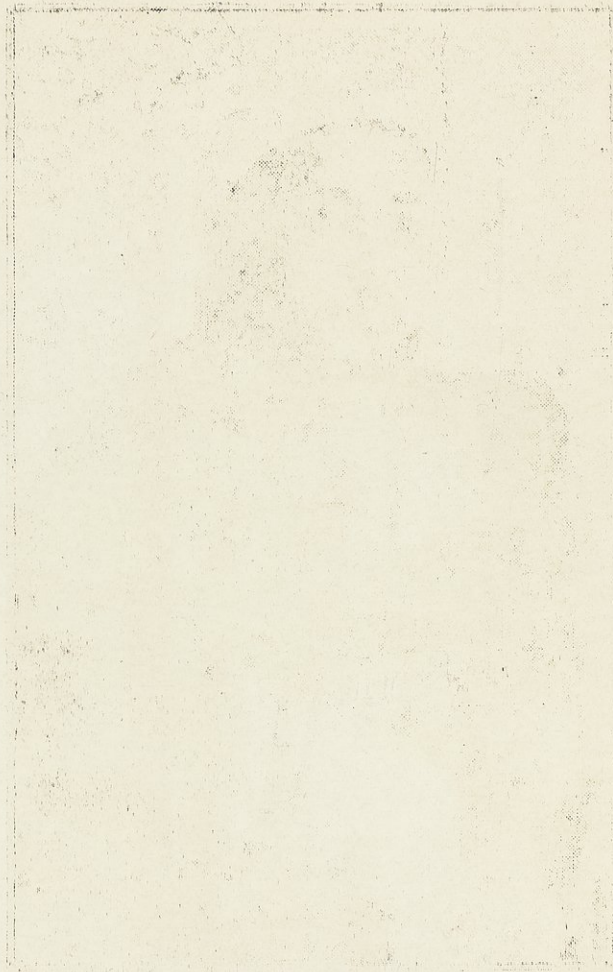
موضوعات الكتاب

صفحة

..	الاهداء
١	تمهيد - للعرب
٣	فراديس في الخيال
١٧	في مجاهل تهامة
٣٠	بكره . إن شاء الله
٤٣	صنعاء عرش اليمن
٥١	ملك العربية السعيدة
٥٨	جمعة رمضان
٦٥	جلسة طريفة مع الامام
٧٥	الايمان الى اليمين
٨٦	الكنيس المخبوء
٩٢	عاهل بلاد العرب
١٠٢	بلاط يحيى بن محمد
١١١	أحمد سيف الاسلام
١١٩	مصيف الامام
١٢٦	نبأ من سبأ
١٣٤	خاتمة



حضرة صاحب السمو الملكي الامير
سيف الاسلام عبد الله



Handwritten text in Arabic script, likely a signature or a note, located below the rectangular area.

بسم الرحمن الرحيم

تمهيد

شغفت من عهد بعيد بمطالعة مؤلفات الرحالة وكتب السائحين الأوروبيين الذين وفدوا منذ القرون الوسطى حتى العهود الأخيرة على مصر وبلاد الشرق العربي فقرأت منها الشيء الكثير ولا سيما ما كتبه السائحون الإيطاليون الذين كانوا أول من اتصل من أهل الغرب بالشرقيين من أمثال شيرياكو دى أنكونا وفريسكو بالدى وروزوليني دى ييزا وبييترو ديلا فالى وجيوفانى بلسونى دى بادوفا وروبيكى بريكىتى والسيدة آنى فيفانتى وغيرهم الذين زاروا مصر والشرق الأدنى والذين قصوا علينا فى مؤلفاتهم الثمينة كثيراً من الاخبار الطريفة والافصاف الممتعة عن بلاد الشرق واثارها وأهلها من بدو ومن حضر وذكروا الكثير من عاداتهم وصناعاتهم وطبائعهم وقد أتيج لى فى السنوات الأخيرة على أثر استماعى للمحاضرات الشائقة التى كان يلقيها عن البلاد اليمنية الاستاذ المأسوف عليه المستشرق الايطالى الكبير نالينو بالجامعة المصرية وفى قسم الثقافة العليا بجزيرة رودس — أن أعنى عناية خاصة بمطالعة ما كتبه بهض هؤلاء الرحالة والعلماء عن بلاد العربية السعيدة من أمثال لودفيك دى فارتيا الايطالى الذى قام برحلته الى الشرق من عام ١٥٠١ حتى عام ١٥٠٨م والذى كان أول أوروبى وضع دليلاً قيماً عن أسفاره فى مصر والشام والحجاز واليمن وبلاد فارس والهند وسيلان وملقا . ومن أمثال العالم الأثرى آرنو الذى وضع رسالة عن « رحلته إلى مارب » ورسالة أخرى عن « طائفة الأخدام فى اليمن » ونشأتها وعاداتها وطبائعها إلى غير ذلك . ومن أمثال « بوتنا » الذى وضع مؤلفاً عن رحلته فى العربية السعيدة كما طالعت تلك الرسائل الممتعة التى كان يرسلها الاخوان لويجى وجوزيى كاپروتى — اللذان عاشا مدة فى اليمن — إلى « جمعية الاستقصاء التجارية الافريقية » فى ميلانو

ورحلة أخرى لمؤلف مجهول قام بها في بلاد العربية السعيدة من عام ١٧٠٨ حتى عام ١٧١٠ وطبعت في مدينة البندقية في ١٧٢١ م — وكتاب « ثلاثة أعوام في اليمن » الذي وضعه رتزو مانزوني وكتاب نيموهر (وصف بلاد العرب) وكتاب ج . ب . روسي « اليمن » الذي وصف فيه بلاد اليمن وتربتها ونباتاتها وعطورها . والكتاب الذي وضعه الدكتور انسالدی (اليمن) الذي احتوى على تاريخ مختصر لليمن ووصف دقيق بارع لاجوالها ومناخها وكبار شخصياتها ثم أخيراً هذا الكتاب (مملكة الامام يحيى) الذي وضعه من نحو عشرة أعوام الكاتب الايطالى الذائع الصيت والصحفى القدير « سلفاتور اپونتي » واسمائه (خفايا الحياة في العربية السعيدة) وأستطيع القول بأن هذا الكتاب الاخير كان أكملها وأتمها وأوفاهها جميعاً وكان أدقها تعبيراً وأصدقها تصويراً وأبرعها أسلوباً فقد تحدث مؤلفه الفاضل حديث الرجل الخبير الدقيق الملاحظة والمحدث الحلو الحديث الذي امتاز بفضيلة الانصاف والبعد عن الهوى وعند ما تلوت هذا الكتاب راقنتى طريقة مؤلفه في البحث ودقته في الوصف فنقلت إلى العربية بعض فصوله التى انصف فيها الشعب اليمنى وأشاد بجهود مليكه العظيم جلالة الامام يحيى حميد الدين وبوداعة أهل اليمن ولطفهم ودمائة أخلاقهم وحلو معشرهم والتى وصف فيها المدن اليمنية الجميلة والهضاب العالية ذات المناظر الفتانة أجمل وصف ونشرتها تباعاً فى « مجلة الرابطة العربية » وتصادف أن قدم فى هذه الاثناء إلى مصر حضرة صاحب السمو الملكى الامير سيف الاسلام عبد الله وكان لى حظ التشرف بمعرفته ولما عرضت على سموه بعض هذه الفصول أبدى — حفظه الله وأعز به دولة الأدب — رغبته الكريمة فى نقل هذا الكتاب النفيس إلى اللغة العربية وقد شجعنى سموه تشجيعاً لن أنساه وأمدنى ببعض معلوماته القيمة وملاحظاته الثمينة على بعض ما وقع فيه الكاتب من الهينات الهيئات فكان لسموه الفضل الأول والاخير فى اخراج هذا الكتاب ووضعه فى متناول أيدي الناطقين بالاضاد أدام الله حياته وأبقاه نصيراً للادب والمتأدين أنه سميع مجيب .

فراديس في الخيال

في اليوم الرابع والعشرين من شهر شعبان من سنة ثلاثة وخمسين وثلثمائة وألف دخلت الأراضي اليمنية الواقعة تحت سلطة الامام يحيى بن محمد حميد الدين وكان أول شيء وقع عليه نظري هو جزع شجرة عوجاء لم تفقدها السنون كل فروعها قد وقفت في منتصف الطريق تمنع المرور وينتهي عندها كل أثر للمسير . ولم تكن العواصف والاعاصير مخطئة في الابقاء عليها لأنها — وقد كان الى جانبها ثلة من الجنود من مختلف الأسلحة — كانت حارسة ذلك السد المنيع الذي يرسم الحدود الجنوبية لمملكة اليمن والذي يفرض على السائح الاجنبي قفزة بهلوانية ترجع به الى ما وراء ستة قرون من الزمان .

وعلى مسافة كيلو مترين اثنين من الطريق كان يبدو للعيان الجمرک اليمنى وكان به ما يقرب من الخمسة عشر جنديا مسلحون كلهم حتى أسنانهم بينما كانت تبدو من خلال طيات عمامتهم المختلفة الالوان حزم صغيرة ظريفة من أعواد تشبه اعواد الريحان ، وكانت وجوههم الزيتوية الجافة تبتسم للغريب الذي يسمح له الامام بالقيام برحلة إلى صنعاء .

ولا يذهب إلى صنعاء كل من أراد ذلك . ومكة — كما هو معلوم — محرمة على غير المسلمين وكذلك هذه المدينة المقدسة فهي محكمة السد منيعة الجانب لا يدخلها من الاجانب إلا ذو حظ عظيم . لأنها تستقبل في أحوال فادرة أحد الاجانب النادرين وكم رفضت الكثيرين من الراغبين في زيارتها وأبقتهن بقسوة مريرة بعيدين عن أسوارها الطينية الغبراء .

وإن صعوبة الدخول في مملكة اليمن تجعل السفر اليه من الامور المحببة المرغوب فيها لأن ثمار الشجرة المحرمة هي أشهر الثمار في كل زمان ومكان ، وقد قيل في الأمثال : أحب شيء إلى الانسان ما منعه . واليوم بينما يستطيع كل انسان أن يذهب أنى شاء متى شاء ، وحيث أصبح كل ركن من أركان

المعمورة أهلاً بالسكان معروفًا للجميع . وأخذت صور معالمه ومغانيمه بآلات التصوير ، وعرضت على لوحات السينما على أيدي الزائرين العديدين ، فإن إمكان الدخول في بلد مقفول يعتبر من الميزات الثمينة التي لا تقدر بمال ، وعلى لأخص إذا كان هذا البلد من بلاد العرب ، التي تجلب لنفس السائح بهجة الاكتشاف المزدوج : اكتشاف المكان واكتشاف الزمان .

ويتساءل الكثيرون عما إذا كانت بلاد العرب هي في الحقيقة جزء من القارة الآسيوية لأن الخليج الذي يفصل شبه الجزيرة عن القارة السوداء لا يزيد اتساعه كثيراً على ذلك الخليج الذي يفصلها عن بلاد الفرس كما أن موصلات البلاد العربية مع الغرب كانت دائماً أكثر منها مع الشرق لأن جيل الذين أتوا للاختلاط بالبذور السامية الذين تكون منهم شعب شبه الجزيرة الأول إنما جاءوا من شواطئ البحر الأحمر المقابلة ومع ذلك فإن القارة الآسيوية المعروفة لنا بسيل المدنية القديمة المنهر الذي أمد العالم بالأنبياء والمحاربين والفلاسفة والذي وقفت مياهه ونضب معينه منذ قرون — لا تزال تعرف بعدم الثقة الغربية فيها نحو الاجنبي — تلك الخصلة التي هي من خصائص الآسيويين والتي تبدو لنا تحت مختلف الاشكال في كل مكان من بلاد الشرق

وتضاف الى الصعوبات السياسية التي يلقيها من يريد زيارة اليمن مصاعب السفر المادية إذ أن الانتقال فيها لا يمكن أن يتم بدون وسائل شاقة مضنية وبين مميزات اليمن الفريدة أنه لا يمتلك كيلو متراً واحداً من السكك الحديدية وقد كانت هذه الميزة الفريدة على وشك الضياع في العهد التركي عند ما حصلت شركة فرنسية على امتياز بإنشاء خط سكة حديدية يمتد من الحديدة إلى العاصمة اليابانية ولكن جاءت الحرب العظمى الأوروبية الأولى في سنة ١٩١٤ مبكرة وقبل الأوان ووافقت الاعمال في هذا الخط بمجرد ابتدائها . وأما القضبان التي كانت قد مدت على مسافة قصيرة من الساحل فقد خلعتها قطعة بعد أخرى أصحاب « السنايك » الذين كان يسوءهم أن يعودوا من الحديدة بعنابر مراكبهم خاوية (ويقال ان الحكومة الفرنسية ترسل في كل عام وبدون

انقطاع الى الحكومة اليابانية مذكرة تلح فيها بطلب تعويض عن الخسائر التي تحملتها الشركة صاحبة هذا الامتياز وان الامام يستقبل هذه المذكرات باقتسامه ويودعها ضمن محفوظات الدولة واضيائرها .

وفضلا عن ذلك فان الطرق في اليمن غير متوفرة والى سنوات قليلة كانت البلاد تجهل كل الجهل استعمال العجلات ، اذ كانت تستعمل الخيول العربية الكريمة للرؤساء والكبراء ، كما كانت تستعمل الجمال والحمر والبغال لنقل الاحمال . ومن المعلوم انه في البلاد الاقل مدنية في أفريقيه بدأت الجمال تفقد بسرعة ما قدر لها كدواب للحمل ولكن بلاد العرب بقيت البلاد الوحيدة التي تكثر فيها القوافل التي تزيد في بهجة مناظرها العظيمة الخلابة .

أما الآن فقد ظهرت هنا أيضا السيارة ولكنها تبدو كشيء دخيل وتعتبر كألعوبة خفيفة متأرجحة رجرجة غير آمنة وكان استعمالها سببا في هياج بعض رؤساء الدين وثورتهم وها هم أولا ، لا يزالون إلى اليوم لا يستطيعون اخفاء كراهيتهم واستنكارهم عند ما يرون أراضى اليمن المقدسة يشوها ظهور تلك الآلة الجهنمية ، على أن معظم السيارات للقليلة التي استحضرت لا تزال باقية بدون استعمال أو تسير حتى يصيبها شيء من العطب في المدرجات الصخرية أو على سفوح الجبال ثم تترك بدون اصلاح . وقد حصل أحد « سيوف الاسلام » أي أحد أبناء الامام على بعض للسيارات وأجرها لبعض الأفراد وحذا حذوه بعض الرؤساء الآخرين . ولكن هذه الوسيلة من وسائل النقل المسيطرة على حياة الغرب إنما هي هنا بالنسبة لمن يستعملونها ليست إلا من الأشياء الكمالية التي لا يقصدها إلا الزخرف وحب الظهور ولا شيء غير ذلك .

أما أعمال البريد في اليمن فلها بالرغم من بطئها تؤدي وظائفها بمنتهى الدقة والنظام ويقوم بها « سعاة » يسرون على أقدامهم مسافات تقدر في بعض الاحيان بالثلاثين أو الأربعين من الكيلو مترات ولا يركبون الجمال والبغال الا في بعض المناطق فقط .

ومما لا شك فيه أن السيارة سوف تفرض نفسها أيضا في بلاد العربية

السعيدة إن عاجلا أو آجلا ، وكذلك سوف تنشأ هنا في آخر الأمر بعض الطرق التي تظهر عليها تلك اللعب الأوروبية قليلة الارتجاج ، وسوف تفقد في نظر بعض اليمنيين المتنطعين صفتها الشيطانية ، فقد افتتح منذ سنتين للمواصلات بكثير من الجرأة والشجاعة طريق السيارات الذي يبدأ من صنعاء إلى الحديدة والذي يربط الهضاب الغنية بالسهل والبحر كما يوجد الآن طريق آخر هو طريق « عدن — تعز » .

وبعد امضاء معاهدة الصداقة التي أبرمت في شهر فبراير من عام ١٩٣٤ اتفقت الحكومة اليمنية مع السلطات الانجليزية على ضرورة فتح بلاد اليمن للتجارة والتعامل مع عدن لمصلحة البلادين وقد أعلن رسميا إتمام الأعمال في الطريق الجديد ، ويظهر الآن شريانه على خريطة بلاد العرب واضحا كل الوضوح ، على أنه توجد طرق أخرى كثيرة تظهر بشكل عظيم في خرائط أفريقيا وآسيا ولكنها اذا ما بحث عنها على الطبيعة كان من أصعب الأمور العثور عليها وهذا هو مادعا السائق « مسعود عوض » الذي له خبرة ومقدرة فريدة على قيادة السيارات في الأراضي اليمنية والذي كلف بقتلي في سيارته المتينة من عدن إلى صنعاء وما جعله يستصحب معه مساعده « أحمد عبده » الذي كان أول واجباته أن يدلنا على الطريق السوي ، وأن يساعدنا عندما يقتضي الحال أو عندما ينقطع أثر الاقدام .

وكان الى جانب السائق ومساعده الخادم « عبد القادر » أحد أفراد قبيلة الاخبارى الذي كان يتكلم الايطالية بطلاقة لأنه خدم مدة من الزمن أحد قناصل إيطاليا وذهب معه حيث بقى وقتا طويلا في مدينة « سينا » بإيطاليا وكان يتحدث معى بدون تكليف . أما السيارة فلم تكن لتسع لكثير من الناس غير من ذكرت لأنها كانت مشحونة بالأمثلة وقطع الغيار التي كان من المحتمل أن تصبح ضرورية وكان بها أيضا مقدار كبير من المؤونة من البنزين والزيت فضلا عن الأمثلة التي كانت تشتمل على الحقائب ، وعلى كمية عظيمة من الاشياء التي تكاد تكون السياحة في الوقت الحاضر قد نسيتها تماما ، هي ماء للشرب في زمزية من زمزيمات الميدان وعدة علب من المأكولات

المحفوطة وكان هناك أيضاً كيس من شأنه زياده الحمل زيادة كبيرة وهو كيس النقود لأن الشعب اليمني ليست له ثقة في قطع الأوراق التي يتعامل بها الناس في البلاد الأخرى كنقود اذ أنه في اليمن كما في بلاد الحبشة يستعمل ريال « ماريا تيرزا » الذي تنحصر قيمته في وزنه وانه وأيم الحق لعملة تدعو للاطمئنان ولكن حملها ثقيل متعب . وكان في هذا الكيس الف من الريالات لا يقل وزنها عن الثمانية والعشرين من الكيلو جرامات .

كل أولئك قد صف ونظم بعناية كبيرة في داخل العربة وعلى أطرافها وعلى حمالاتها ورفارفها وجلس « عبده » فوق صفايح البنزين والحقائب وهو واثق من أنها تحمى رأسه من الاصطدام بسقف العربة وقد أتم « أحمد » الرحلة وهو جالس فوق الجمالة متحاشياً بما أوتيه من ثبات عظيم من السقوط في الحقول عند كل هزة عنيفة تهترها السيارة .

بهذه الجمولة الكبيرة وبهذه الحاشية الفاتنة سافرنا من عدن في الفجر وكان المسلمون الصالحون لا يزالون على شاطئ البحر وأرجلهم مدلاة في المياه حيث يقومون بوضوءهم الديني الجليل وقد وقفوا كلهم بعد ذلك في صفوف متراصة كأنهم في انتظار القيام باستعراض عظيم . وقد سرنا بسرعة عظيمة تاركين عن يسارنا ذلك المنظر البهيج لتلك الأهرام المصطفة من الملاحظات الايطالية على حافة المستنقع المملوء بالمياه ومضيئنا قدما بين الحدائق الغناء والقفار المكفهرة في بلدة « الشيخ عثمان » .

وبعد وقفة قصيرة وقفناها في جمر كسلطنة لحج رأينا أوحالا وخرقا وحظائر للجمال ومراقد وأرائك ومقاعد صنعت كلها من أغصان الصفصاف ممتدة على طول الطريق كما شاهدنا وجوهاً تبدو عليها آثار النوم وخناجر دمشقية وزججيات فخمة متعددة الألوان والأحجام وبعد كل ذلك مباشرة ها نحن أولاء نأخذ طريقنا ونتجه نحو بلدة « المسامير » مارين بعدة قوافل من الابل تتفرق عند ظهور السيارة في السهل الرملي المجدب الذي تظهر عليه من وقت لآخر بعض الأعشاب القليلة المبعثرة هنا وهناك ونقابل على سفوح الجبال على حين بغتة واحة « لحج » وإذا بها تضم حقولا يانعة مملوءة بأشجار

المانجو العالية ذات الأوراق الخضراء الكثيفة وشجيرات الموز الفخمة ذات الرائحة العطرية الفيحاء وحقول الأعشاب الطبية التي انتظمت بين صفوف النخيل . وتضرب هذه المزروعات حلقة خضراء حول تلك المدينة المنعزلة المكونة من بيوت حقيرة بنيت بالطين والتي تضم أيضا بعض القصور ذات الزخارف التي تبهر النظر وتسر خاطر وبعد أن يتخطى الزائر ميدانا فسيحاً غير منتظم الشكل كانت تتمرن فيه بعض العساكر بدون حماسة ظاهر على استعمال المتراليوزات يظهر بناء عظيم من طراز لا يمكن وصفه وليس من السهل تعريفه كله شرفات وكله أعمدة وكرانش وزخارف من الرخام يهر النظر كتب على واجهته بأحرف عربية واضحة وبخط عريض « قصر السلطان عبد الكريم فضل » وقد وضعت ورقة يميل لونها للاصفرار ثبتت بثلاثة مسامير قديمة على باب البناء الذي يفتح في سور الحديقة وكتب عليها أن الدخول ممنوع ولسكن الأجانب الذين يتخطون حدود السلطنة بجواز مرور من مقر حكومة عدن يستقبلون بكل ترحيب وإكرام .

وقد قبل سلطان لحج مع الشكر حماية بريطانيا ومعاشاً سنوياً يتقاضاه منها ويعيش عيشة راضية مطمئنة ويحكم بدون قسوة ولا شدة رعاياه المخلصين كما أنه يحصل بدون هوادة الرسوم الجمركية من القوافل التي تخرق أرض بلاده وهو يتلطف بتقديم بعض جنوده للمسافرين من ذوى الحيثية والمقام يرافقونهم في عربة قديمة حتى الحدود اليمانية . وقد استعملت السياسة البريطانية منذ عهد بعيد طريقة المرتبات للسلطين والأمراء والشخصيات الكبيرة ذات النفوذ وهي طريقة لا بأس بها ولو أنها لقيت بعض النقد الشديد من بعض الانجليز الذين يجدون أنها تكلف خزانة الدولة مالا كثيراً وتعتبر امراً لا موجب له وفضلاً عن ذلك فإن إنجلترا قد ناطت منذ عدة سنوات مسألة اكتساب صداقة سكان البلاد العربية وثقتهم بمصلحتين من مصالحها احدهما « المكتب العربي » بالقاهرة وثانيتهما « المكتب الهندى السياسى » بمدينة دلهى ويحدث غالباً أنه عندما يسند المكتب المصرى أحد الأمراء ويدفع له راتباً يكون المكتب الهندى يسند خصمه

ويدفع له راتباً آخر وأظهر حادث من هذا النوع كان تلك المساعدات القيمة التي قدمت بسخاء للحسين ملك الحجاز الأسبق الذي كان المكتب العربي يعضده ويعمل على توحيد كل شبه جزيرة العرب تحت سلطانه والذي طرح جانباً وتخلي عن سلطته لابن السعود الذي طالما لفت إليه المكتب الهندي عبثاً أنظار لندره وحكومتها .

أما سلطان لحج فهو رجل مهذب طيب القلب كريم الخلق جل همه هو تشييد القصور ذات الزخارف المتنوعة والطراز الغريب وقد شيد قصرآ في عدن في حي « كراتز » اعتاد أن يذهب إليه من آن لآخر في سيارة نفمة يقودها سائق حافي القدمين والانجليز يدعونه يفعل مايشاء ولا يعارضونه ولا يحتجون على هذا المنظر المنافي للذوق والذي لايتفق مع جلال السلطنة وهيبة الملك . وسلطنة لحج هي أهم وأشهر جزء في « المحميات » .

وبعد لحج بقليل يبتدىء الطريق الجديد الشهير وفيه تزداد آلام المسافر ومضاعفه فان آثار الاقدام تختفي بين الجبال للبحث عن منافذ أقل وعورة وهانحن أولاء نندفع في مجرى السيول ثم نصعد ثانية فوق الصخور حيث ترتفع الاعشاب ذات الفروع الطويلة وترتج السيارة ارتجاجات قوية وتشب بمقدمها وترتفع عن الأرض وهي تزار زئيراً عالياً فوق تلك الطرقات المنكسرة وتخطر بتخطي بعض القمم الصخرية ثم لاتلبث أن تنخفض وترحف في بعض القنوات الكبيرة بين لفائف ومدارج الصخور المتفرقة هنا وهناك ويغلي الماء في خزانها غلياناً شديداً ولا يستطيع المسافر بأية حال أن يقطع مسافة تزيد على الخمسة عشر من الكيلو مترات في الساعة وبعد كل مائة متر تقطعها كان يسأل بعضنا بعضا اذا كنا سنستطيع مواصلة السفر وعند ذلك تعود بي الذاكرة الى كلمة الكولونيل الذي رأيته في دار الحماية البريطانية في عدن والذي قال الى اننى سأكون أول من يقوم بالسفر في سيارة وقطع المسافة كلها بين عدن وصنعاء ولكن هاقد خابت الظنون وضاع كل أمل في الفخر لأن هذه انما هي رحلات كان من الخير أن نقوم بها على ظهور الابل على الطريقة القديمة في قافلة بطيئة أمينة .

وبعد أن نتخطى الحدود اليمنية بقليل ها نحن أولاء نقف لناخذ ماء من بئر وقفت إلى جانبه ثلاث فتيات يملأن منه جرارهن الحراء الكالحة وإذا يرينا يضحكن ويخفين عنا وجوههن وكانت كل حركة تبدو منهن تثير في الجو رنيناً معدنيا عظيماً لأنهن كن من رقابهن إلى معاصمهن ومن خصورهن إلى كعوبهن كلهن أجراس من الحلى والأحجبة والتمائم... ترى هل هن جميلات؟ فانهن بعد أن يتحدثن بما فيه الكفاية يدرن وجوههن نحونا فنرى وبالعجب ثلاثة وجوه قد طليت باللون الأصفر وهو لمسحوق اسمه « المهرد » يشبه الزعفران ولحسن الحظ أننا عندما اقتربنا من المدينة قابلنا نساء أخريات متحجبات وذلك لأن البدويات في البلاد العربية هن وحدهن اللاتي لا يخفين وجوههن واللاتي يخرجن سافرات في الطرقات وإذا كان السفرور والغاء الحجاب معناهما التقدم والمدينة فاعسى يكون ذلك البلد الذي يكون فيه الريف والصحراء أكثر مدنية من المدن والبنادر؟

ها هي ذي آثار الأقدام تتحسن تدريجياً ثم لا تلبث أن تظهر بوضوح وها هو ذا الطريق يستقيم أمامنا (وسوف يكون الامام جد سعيد وسيسر كل السرور عندما أذكر له أن رجاله عرفوا كيف يهدون الطريق في بلادهم خيراً من رجال المحميات) ولكن يجب أن يكون من أندر الأشياء ظهور سيارة واحدة في تلك المنطقة إذ أن الأهالي كانوا يجرون من القرى والدساكر ليتجمعوا في طريقنا وكذلك كانت الماشية والابل تجفل خائفة مذعورة وكانت توجد في بعض الوديان التي اخترقناها مراكز أهلة بالسكان وحقول يانعة خضراء على أن بعض الوديان الأخرى كانت تبدو كأنها الصحاري والقفار حيث لا زرع ولا ضرع على أنها كانت كلها تحميها بعض التحصينات الأولية البسيطة .

وتعطي أشعه الشمس عند الغروب منظراً بديعاً للأعشاب الكبيرة التي تخلع على أراضي البلاد ثوباً أنيقاً من البهجة والجمال وعند أحد المعابر يشير الغبار جري قطع من الجمال تجفل خائفة وتقطع شربها وعند مرورنا بأحد الوديان نجد قطعاناً لأعد لها ولا حصر من القردة تهرب عند رؤيتها

وتصرخ صراخا يصم الآذان وتتساق فوق الجبال وهى تحمل صفارها فوق ظهورها .

وأخيراً نصل إلى تعر بعد الغروب عند ما تختفى الدور فى عمق الصخور السمراء وخلف المساجد الناصعة البياض التى تمتص آخر أنوار النهار والتى تبدو مآذنها الرشيقة العالية كأنها معلقة فى الفضاء .

تعر . . . أو تاغز . . . أو قل ماشئت ! فان الجغرافيين أنفسهم لا يعرفون حق المعرفة حقيقة اسم هذه المدينة اللطيفة الوادعة التى تبرغ وسط واد من الوديان الفيحاء فوق منحدرات الكتلة الجبلية المسماة « صبر » . وتعز لا تتحدث كثيراً عن نفسها ولا تدعو أحداً للتحدث عنها خارج حدود البلاد ولو أنها كانت مابى قرنين ونصف قرن من الزمان حاضرة بلاد اليمن فى أيام بنى غسان الذين فتحوا مكة فى سنة ١٣٣٧ ولا تزال هذه المدينة تحتفظ من ذلك العهد بهجتها التى تشهد على عظمتها بما فيها من المساجد والقباب ولاحد هذه المساجد مئذنة عالية لطيفة تميل بعض الميل كأنها برج مدينة « بيزا » الشهير . وكما تشهد على ذلك أيضا حصونها المقامة فوق المرتفعات كأنها الأكاليل أو النيجان على أنه لم يبق أى نخر عند أنبائها وسكانها الطيبين الذين هم شعب هادىء وادع يعيش محتسباً فى واديهما الضاحك الفيحاء دون أن يهتم أقل اهتمام بما يجرى فى أنحاء العالم الأخرى .

وإن ظهور غطاء للرأس ذى شكل أوروبى فى طرقات مدينة تعر يعتبر حادثاً لا يخلو من أهمية لأن الأشخاص الذين لم يظهروا لأول مرة أقل اهتمام ولكنهم بمجرد أن تكاثر عددهم وأصبحوا عشرة هاهم أولاء يتشجعون ويأخذون فى تتبع خطوات الأجنبى وبعد قليل سرعان ما يتزايد عدد هذا الجمع بالتدريج حتى يصبح جمهوراً غفيراً وبهذه الطريقة يتجمع نصف سكان المدينة الذين يمتنى اللطف وبدون مضايقة الأجنبى يأخذون فى السير خلفه فى رياضاته وتنقلاته ويأخذون فى إبداء إعجابهم مثله بمنظر حوانيت السوق الفتانة كما لو كانوا يرونها للمرة الأولى . وفى هذه الحوانيت

تباع الأحذية والمراكيب والترجيلات المزركشة والحناء التي يخضب بها النساء اليمنيات أيديهن وأقدامهن كما تباع برادع الخير والجمال ذات الألوان الزاهية والبخور المستكاوى والشعير والدخان والمر المسكاوى والتبغ وكميات كبيرة من « القشر » الذي هو غلاف حبوب البن الذي يتخذ منه الأهلون شرابا لذيذا لاغنى لهم عنه . وإذا ما أسرع الأجنبى الخطى فانهم يحتذون حذوه وإذا ما وقف فجأة يجدهم كلهم من حوله ، وغنى عن البيان أنه لا توجد أية فائدة في هذه العادة الغريبة للأجنبى الذي يدفعه حب الاستطلاع لتقصي الأشكال والعادات والذي يرغب في رؤية كل شىء في أقصر وقت ممكن .

ومما هو أقل سهولة وأعز منالا من ذلك — رؤية الأمير القوى الذى يحكم بلاد اليمن الجنوبية لأنه عادة لا يقيم فى المدينة إذ جعل مقره فوق مرتفع « دار النصر » حيث يشرف منه على كل جزء من أجزاء مدينة تعز وللوصل الى مقره يقتضى الأمر مسيرة ساعة ونصف الساعة على متون البغال ولكن هل فى استطاعة الإنسان أن يرغب عن معرفة شخصية عظيمة ذات أثر عظيم؟ ان السيد على الوزير هو الأمير الحقيقى الوحيد الموجود فى بلاد اليمن لأن غيره من الأمراء ماهم إلا قواد الجيش وهو منحدر من اسرة من اعرق الاسر فى البلاد العربية طالما أمدت شبه الجزيرة بالملوك والزعماء والقادة من عهد بعيد . أخذت قافلتنا الصغيرة فى المسير بعد الفجر بقليل وكانت ترافقنا فى تلك الرحلة الطريفة الممتعة مفرزة من الحند بعضهم راكب والبعض الآخر راجل ونخرج من المدينة تاركين عن يميننا حى اليهود الحقيق ونلازم الجبل صاعدين فى الحوض الجاف لآحد الوديان الذى تتدرج على جوانبه الحقول الصغيرة التى هى النموذج للزراعة الوطنية . وفى المناطق الفقيرة على سفح التل تنتشر أعشاب كثيرة تبتدى بعدها حقول « القات » الشهيرة .

و« القات » هو شجرة متواضعة ولكنها ذات أهمية عظمى وأثر كبير فى حياة اليمن ومن السهل أن يقع فى الخطأ من أراد أن يحكم على هذه البلاد على أساس العوامل السياسية والاقتصادية التى من أهمها ثروة تربة اليمن الطبيعية وشخصية الامام القريدة ودسائس الدول الاجنبية — بدون الاهتمام

بذلك النبات العجيب (أى القات) الذى يفتح أمام اليمنيين أبواب الفرديس الوهمية والذى يفرض عليهم قواعد فريدة فى وجودها لان أهالى العربية السعيدة اعتادوا من عدة قرون مضت مضغ أوراقه ولهذا العادة قصة طريفة فقد لاحظ أحد رعاة الابل فى ذات يوم أن جماله بعد أن أكلت من تلك الاوراق اعترتها نشوة غريبة وأخذت فى الترنج والتمدد على الارض فى مرح وانسراح دون أن تشعر بالرغبة فى الحركة او القيام بأى عمل حتى أن ضربها بالهراوات الغليظة لم يكن يحرك منها ساكنا أو ليجعلها تقوم من مكانها وخیل أنها قد أصبحت عديمة الاحساس حتى ولا بالالم لانها بقيت فى الارض متمدة كأنها فى حلم لذيد فدهش العربى وبقي برهة يفكر فى ذلك الامر الغريب ولم يلبث أن حذا حذوها وأكل هو أيضا من ذلك النبات ومن ذلك الوقت حرص الرعاة على ابعاد ابلهم عن أوراقه وأخذوا هم فى استعمالها واستأثروا هم بها دونها وهكذا عم السرور وانتشر الفرح والحبور فى كل القلوب . على أن طعم القات لا يمكن تعريفه ويقال انه غبرى فيه شىء من المرارة والاهالى يحبونه حب العبادة وينفقون فى سبيل الحصول عليه أكثر مما يصرفونه فى طعامهم وشرابهم ويمضغون أوراقه كل يوم فى مختلف ساعات النهار ويستمتعون بأكله ومفعولة ولكن التهيج الطبيعى والنخى الذى يحدث من القات يتبعه انحلال وانحطاط . ويقال كذلك ان الافراط فى تعاطيه يجلب النوم والانقباض وضيق الصدر ويكون سببا فى الضعف الجنسى قبل الاوان ويحدث غالبا لماضغى القات المدمنين عند ما يصلون إلى سن الخامسة والثلاثين أو الاربعين أن يصبحوا غير قادرين على ارضاء زوجاتهم .

واليمنيون لا يستطيعون العيش بدون هذا النبات العجيب وبالطبع ليس كل القات الذى ينبت فى اليمن له نفس القيمة لان المتفنيين فى تعاطيه والهواة يفضلون أوراق القات التى تنبت فوق منحدرات جبل « صبر » ويعتبر « قات » تعز ثروة عظيمة لزارعيه ونعيا مقيا لتلك الخلائق الماضغة . وقد حدث فى الربيع الماضى عندما فتح الامام يحيى حدود بلاده للتجارة مع عدن أن سافرت قافلة من تعز تحمل كمية عظيمة من القات ولكن هذه القافلة

هوجت في سلطنة لحج ونهبت وعندما علم بهذا الرزء العظيم اليمينيون المقيمون في عدن تكدروا كدرا شديدا ووقعوا في ضيق شديد والم ممض ولم يتعزوا عن هذا المصاب حتى عندما رأوا الطائرات البريطانية التي أرسلت لتأديب أهالي القرى التي وقعت فيها الحادثة .

وأما المزروعات التي لها شكل الموالح فانها تنتهي هناك حيث يصبح الجبل صحراء جرداء . وهنا بين كومتين هائلتين من الصخور ينفتح كهف عظيم عجيب يقوم على حراسته عدد كبير من الجنود ، هو خزائن الامير . وعلى قمة هذا التل العجيب الذي ينبت القات والذي يحرس كنوز علي بن الوزير يقوم قصر منيف أبيض كثير التضاريس والتعاريج له نوافذ كبيرة تزينا مشربيات انيقة كما تقف من حول هذا الجبل مبان جريئة من الصخر تتوج قممها ابراج صغيرة من الحجارة السمراء . وفي الليل عندما يحظر على المواطنين ارتقاء هذه المرتفعات يتظاهر الجنود بالقيام بالحراسة عندما يلقون بصيحاتهم الطويلة من كل برج .

اما البهو الذي بقينا فيه في انتظار الامير فلم يكن غير غرفة فسيحة الارعاء واطئة يضاء قد فرش جانبها الخارجى ببسطة ووسائد من كل لون وكانت ترى من نوافذها المفتوحة على الفناء — الجند المتجمعة وبعد اشارة بالبورى يظهر ابن الوزير يسنده من ابويه رجلا من رجال التشريفات واصحاب المقامات . ويتمتع ابن الوزير بصحة جيدة ولا يزال مستمرا في انجاب الاولاد رغم نضوج سنه وهو ليس في حاجة والله الحمد لان يسنده احد في تنقلاته ولكن حركة الرجلين كانت لها قيمة تشريفية ولا شىء غير ذلك .

اتجه الامير نحونا ومد يده بالسلام علينا وبعد مصافحتنا ابتسم للقائنا فظهرت ثناياه واسنانه الذهبية وكان يخفى خلف نظاراته السوداء عينا مكفوفة لان الجدرى حرمه من احدى عينييه كما حرمه ايضا من تولى عرش اليمن لان من الشروط اللازم توافرها في المرشح للانتخاب لامامة اليمن سلامة الجسم . وكان ابن الوزير يرتدى قميصا طويلا ازرق اللون ذا ازرار معدنية

مستديرة يضمه إلى جسمه حزام موشى بالذهب يشد الخنجر المقوس الذى تلتف حول مقبضه مسبحة من العنبر ويتدلى على كتفيه شال أبيض أطرافه موشاة بالذهب ويلبس على رأسه عمامة كبيرة رشق بين طياتها قلم من أقلام الحبر الأمريكية فبدأ كأنه نيشان صغيرا

وحديث ابن الوزير لا يخلو من أهمية ومتعة ولذة فهو رجل مثقف واسع الاطلاع له المام بكافة المسائل العامة لأنه يطالع باستمرار جرائد مصر وفلسطين والشام وقد قال لى ان اوروبا قلقة مضطربة وان ما يحدث فى بعض الدول لا يبشر بالخير إلا اذا شاء الله أن يحفظ السلام . وقد تكلم معى عن اليمن وعما يحتويه من ثروة وعن مستقبله وكان يتحدث بهدوء وثقة وقال لى ان اليمن لا يزال يحتفظ ببابه مغلقا واذا لم نقل « نعم » لكل من يطلبون الينا الحضور فلا يجب أن يخطر بالبال أننا قوم متعنتون أو أننا نكره الأجانب أو نحقد على الغرباء وما ذلك إلا لأن الكثيرين منهم لا يطمئنوننا على النفسية التى يأتون بها الينا وغالبا ما يكونون من الدسائس أو المهرين الخطرين الذين يجب أن نتقى شرهم .

وتقع تحت ادارة هذا الأمير كل الأراضى المتاخمة لمحميات عدن البريطانية وقد نجحت إنجلترا فى عام ١٩٠٨ فى أن تعقد مع الباب العالى اتفاقية تضمن لها مزايا جغرافية هامة وقد وجدت هذه الاتفاقية مقاومة دائمة من الامام الذى يعارض فى شرعية الامتيازات التى منحها الترك وقد كان لهذه المعارضة أشكال مختلفة بعضها دموى كالذى حدث فى سنة ١٩٢٨ وانتهى باحتلال « الضالع » وقد تقرر فى سنة ١٩٣٤ تعيين لجنة انجليزية يمنية اجتمعت فى شهر اكتوبر من تلك السنة للمرة الأولى فى منطقة « ماويه » بين تعز والمسامير ولكن أعمالها لم تتقدم ولم تلبث أن أوقفت اجتماعاتها نظراً لحلول أعياد شهر رمضان على أن تعود إلى الاجتماع متى شاء الله . . وليس هناك ما يوجب العجلة على الاقل من الجانب اليمنى اذ أن مدة هذا الاتفاق أربعون عاما تبقى الحدود فى خلالها كما هى الآن ما لم يتم اتفاق آخر فى هذا الشأن .

وقد حدثني الامير عن أشياء كثيرة بينما كان الخدم يحملون صحاف القهوة الحلوة اللذيذة الطعم التي كنا نشربها في فناجين صغيرة متعددة الالوان وقد أعطاني خطابا مكتوبا باحرف عربية زخرفية لكي أحمله إلى الامام معنونا باسم « مولانا امير المؤمنين حفظه الله » وعندما نخرج من القصر الابيض نجد حرس على بن الوزير الكثير العدد متجمعا في مربع وفي وسطهم الضباط العظام والسياف وكلهم مدهجج بالسلاح والتأئم كما كانت تتجمع في الافنية جمهرة من الموظفين وقد وقف الكتاب من فوق سطح بناء منخفض ينظرون الينا وكانت الابراج العالية ملاءى بالعائم والحراب .

وفي المساء أتوجه لاقوم بزيارة قصيره واجبة للعامل تعز في مقره وهو مزخرف بزخارف مدهشة منقطعة النظير وهو الذي يقابل فيه العامل (وهو كالعمدة في اليمن) ضيوفه . والعامل رجل ظريف فصيح اللسان له عيون خبيثة متجدثة سوداء وله خد منتفخ ولكن لا يخيل الى الناظر اليه انه يشكو او يتألم منه وقد قدم لي بالطبع قهوة وكوبا من الشراب بنفسجي اللون لم اضعه على فمي لئلا انتهك حرمة قوانين الضيافة الشرقية .

وليس العامل هو وحده كل من كان هناك بل كان معه أخواه وزميله المساعد الذي جاء من (شيريام) كما كان معه أيضا بعض معاونين الآخرين كانت لهم كلهم خدود واشداق متورمة ! ترى هل كانوا كلهم مصابين بمرض في اسنانهم ؟

... أخيرا علمت من مضغهم أنهم كانوا يحتفظون في أشداقهم بكمية من أوراق القات !

فى مجاهل تهامة

وعندما ننحدر بسيارتنا متجهين شطر السهل والبحر نخترق منطقة من أكثر المناطق جمالا وأعظمها خصوبة فى هذا اليمن الصغير الذى هو بحق « حديقة بلاد العرب ». وما هو مأثور أن الرحالة الساميين الذين هاجروا من بلاد ما بين النهرين للبحث عن أراض جديدة جالوا كثيرا فى صحراء الجزيرة العربية الصحيرية الرملية وجاسوا خلالها وأخذوا يضربون فيها شرقا وغربا حتى عثروا أخيرا هنا على أرضهم الموعودة التى فيها حطوا رحالهم وعاشوا فيها عيشة رغدة سعيدة وشيدوا لهم مدنا قوية مدهشة .

وفى الحق اننا اذا قارنا اليوم المناطق العربية الأخرى باليمن لوجدناها كلها أراض رملية قاحلة فقيرة تستدعى الشفقة وتستأهل الرثاء اذ تشاهد المملكة العربية السعودية بحسرة وألم فى السنوات الأخيرة نقصان دخلها من الحج الى مكة نقصانا كبيرا بينما تواجه حضرموت صعوبات كبيرة فى تصدير عقاقيرها التى هى من صنف يقل كثيرا عن عقاقير بلاد الهند الشرقية كما أن صيد اللؤلؤ على الشواطئ العربية لا يزال يسبب الكثير من الضحايا البشرية دون أن يؤتى ثروة كبيرة للبلاد .

وان فى الأراضى اليمنية لمناظر نضرة بارعة الجمال واذا كانت تهامة التى هى ذلك السهل الذى يبلغ اتساعه نحو الأربعين من الكيلومترات والذى يمتد على طول شاطئ البحر الأحمر — هى أرض قاحلة محترقة فان المنطقة الجبلية الواسعة والهضاب الشاسعة التى يتكون منها أهم جزء فى البلاد يمتاز بمناخ عظيم وثروة تستلفت النظر لانها تغل كل ما يمكن استغلاله بحيث تستطيع اليمن أن تتسع لاسكان أربعة أمثال سكانها الحاليين .

وهنا فى أراضى تعز يقتصر السكان على الاشتغال بالزراعة على طريقةهم القديمة المعهودة فى الأراضى التى يمكن ربيها بسهولة وبدون أى عناء والتى

تعطى أحيانا ثلاثة محاصيل فى السنة كما تزرع فى الوديان المجاورة الخضر بكثرة جنوبية كما أن النخيل تغمر مناظر الريف الفاتنة واسكن هنا أيضاً كما فى بلاد الشرق يدهش الانسان كل الدهشة للتعارض والتناقض العجيبين بين ثروة البلاد العظيمة وحالة السكان وبين حقول الذرة والقمح والشعير العظيمة وحقول الموز الفخمة اليانعة ومزروعات البن والقات الزاهرة وبساتين المانجو والباباز التى تعطى ثمارا مائية متجاوزة الحد فى كثرتها ومنقطعة النظير فى حلاوتها — وبين القرى الحفيرة التعسة التى بنيت جدرانها من قش وطين . والطريق عادة ان هو الا ممشى يكاد يكون مخطوطا يرتفع أحيانا وينخفض أحيانا وهو يضم فى طريقه كل تجويف وكل انحدار كما يستغرق كل مجرى من مجارى السيول على أن أجمل شطر فى الطريق بين تغر ونخا هو ذلك الجزء الذى يقابله المسافرين فى وادى « فابل » (هكذا) الذى يمتد عدة كيلو مترات فى ممشى فخم من الخضرة اليانعة لان أشجار النخيل المغروسة على جانبيه ترسل فى الجو أغصانها الخضراء ولا يفوتنى أن أقول ان الطريق كثيراً ما يدخل فى الوديان ويخترقها حتى لقد كانت المياه تصل إلى منتصف عجلات سيارتنا ولكن العمق كان متساوياً بفعل السيول وكان فى استطاعتنا أن نسير بسرعة تزيد على أية سرعة سرنا بها فى أية نقطة أخرى لولم تكن قد تجمعت فى مجرى ذلك الوادى كل فضلات القرويين وكانت السيارة كلما تقدمت الى الامام تشتت الجمال والابقار والحمر والماعز والاغنام التى لا عد لها ولا حصر والتى كانت فى قفزاتها غير المنتظمة ترقص رقصات مضحكة باذيا لها الكميرة المكتتزة بالشحم وهى مئات ومئات من الماشية تقع فريسة الذعر والخوف من سيارتنا فتقفز أمامها فى ذلك النفق الذى لا تنتهى خضرته وهى تنثر المياه فى كل الجهات وتثير رذاذه فى الهواء .

وتتتابع الوديان وكأنى بها تتبارى فى احدى مسابقات الجمال ثم لا تلبث المزروعات الخضراء أن تأخذ فى الاغبار وعندما نخرج الى السهل نجد أمامنا الأرض القاحلة وهى أرض محترقة ذات لون أصفر داكن وعندما يبتدىء هبوب الخماسين تأخذ الرمال فى الالتفاف فى الهواء حولنا وتسفع وجوهنا .

هذا وليس في مقدور الرياح التخفيف من الحر الذي يشتد حتى في قلب الشتاء في تهامة وعند نزولنا من ارتفاع ١٨٠٠ متر من تعز يصبح أول اتصال لنا بالسهل المحرق معذباً لجسومنا ومحزناً لنفوسنا ولا تسمح لنا العاصفة الرملية الهوجاء إلا بأن نرى فنار « مخا » وذلك عندما نصبح على أبواب هذه المدينة الشهيرة .

ترى ماذا حدث لمدينة « مخا » الذائعة الصيت ؟ فانها اذا ماشوهدت من بعيد من البحر لا تزال تستطيع أن توهم المسافر بعظمتها لأنها الى الآن تحتفظ بمنظر مدينة جميلة مزدهرة ولكنه اذا ما اقترب منها وتغلغل في طرقاتها تبدو كأنها أطلال قدرة أو كأنها سلسلة من الخرائب متصلة الحلقات وأما الحصون المشيدة على شواطئها التي تظهر في الصور القديمة والتي تعطى المدينة منظرًا حربيًا فكلها متهدمة ومشوهة وتظهر من خلال أبراجها العظيمة المستديرة المدافع الحديدية القديمة يعلوها الصداً وحتى مساجدها فانها قد غدت كلها متهدمة متداعية اللهم الا القليل منها التي لا تزال ما آذنها العالية المنفردة قائمة على أقدامها وأما بيوتها فما هي الا صخور فوق صخور .

ولقد كانت « مخا » منذ مائة عام مدينة هامة عظيمة الشأن واسعة الحركة ولكن سرعان ما سلبتها كل من عدن والحديدة جانباً كبيراً من تجارتها وحركتها ونشاطها وهكذا بدأتدهورها السريع كما أنه في سنة ١٩١١ أطلقت عليها السفن الحربية الايطالية قنابلها فدكت حصونها التي كانت تحتلها الجنود التركية فضلاً عن أنها في أثناء الحرب العظمى في سنة ١٩١٥ تحملت وابلًا من القنابل التي اصابتها بأضرار بالغة . ولقد وجد الملاحون البرتغاليون والانجليز الذين كانوا أول من تغلغل في البحر الأحمر از ميناء (مخا) كانت تتركز فيه كل الحركة التجارية في الساحل العربي ولكنها الآن أصبحت لا يدخلها اكثر من الاربعين « سنبوكا » تأتي إليها في كل شهر لشحن البن والجلود والزبد الذي تحمله الى ميناء عصب في مستعمرة الارتريرية . واما اهل المدينة فيسكنون اكواخا صغيرة وعششا بنيت على هامش الاطلال القديمة

الى جانب حقول النخيل الكبيرة التى تحمى مدينة « مخا » وتقيها غائلة رمال الصحراء وكل ما فيها عدا ذلك ما هو الا قفر فى قفر . واما المباني الاربعة او الخمسة التى لا تزال قائمة فيها فانها تبدو كأشباح فى احدى الجبانات !!
على ان المبنى الوحيد الذى الذى له شكل الاشياء الحية هو « الفنار » ولكن نوره قد انطفأ من اكثر من عشرين عاما بأمر السلطات اليمنية ومما يؤثر ان احد ملوك اليمن الاقدمين واسمه « تبع برهة » قد استحق ان يطلق عليه اسم « رجل الفنارات » لانه هو الذى وضع اولى الاشارات المنيرة على طول شواطئ بلاده ولو انه لا يوجد فى الوقت الحاضر اى نور يرشد الملاحين الذين يترددون على الشواطئ اليمنية التى اصبحت كثيرة المسكن بسبب صخورها الكثيرة واعماقها البعيدة .

ومن ذلك الوقت اصبح فنار « مخا » ما هو الا برج لا نفع منه ولا فائدة فيه ولا تزال الشركة الاجنبية التى شيدته تستبقى فيه احد الحراس وهو شيخ يونانى لم يعرف طوال حياته عيشة غير العيشة التى يقضيها فى الابراج المنعزلة التى تضىء طرقات المحيطات والبحار وهو يحب عزلته هذه كما يحب مهنته ويقوم على حراسة الفنار بكل عناية والتفات فى انتظار انارته متى سمح له بذلك .

ودار هذا الناسك محفوفة هى الاخرى بعناية وهى ولو انها صغيرة الا انها ليست غير موفورة الكرامة اذ يوجد فى بهوها بيانو جميل يلمع خشبه كأنه المرأة ولكن لم تحاول اية يد ان تعزف عليه او ان تسمع انغامه وهكذا يظل البيانو القديم بدون صوت كما امسى الفنار بدون نور .

هذا وقد وقع لى حادث عادى جعلنى ابرح « مخا » على عجل فقد كنت انظر من اعلى احد المباني القليلة الباقية على اقدمائها الى قافلة بطيئة من الجمال المحملة باكياس البن تنتشر بين طرقات الخرائب الجانبية واذا بقادم يخبرنى بأن هناك خطراً يهددنى اذا واصلت السفر عن طريق السهل ويطلب الى العودة الى عدن وحقيقة كانت الحكومة اليمنية قد ابدت موافقتها على رحلتى الى صنعاء ولكن كان يراد منى ان ازل فى الحديدة ومنها استأنف

السفر الى العاصمة وأن أسلك الطريق الذى يسلكه الاجانب القليلون الذين يسمح لهم بدخول اليمن ولكن لم اكن أعرف ذلك وقد علمت أخيراً بأن الامام لما علم بوصولى الى تعز تلتطف بالغاء أمره الاول وسمح لى باختراق أراضى تهامة ولكنى الى هذه اللحظة لم أكن أنا ولا سلطات « مخا » على علم بما جرى .

ولقد قررت فى الحال أن آخذ فى السير الى الحديدية للوصول اليها فى أقرب وقت ممكن ووافق رجالى كلهم على ذلك ولكن الذى تضايق أكثر من غيره من هذا الحادث كان هو « عبد القادر » الذى لم يكن ليخطر له ببال انه من الممكن الاخلال بواجبات الضيافة بالزام احد الاجانب الذين سمح لهم بدخول البلاد بضرورة قطع رحلته والعودة من حيث أتى . وقد مره كثيراً أننى قررت مواصلة السفر بأسرع ما يمكن الى الحديدية ولكن هانحن أولاء بمجرد أن نصبح خارج مدينة « مخا » سرعان ما نضل الطريق الذى لم يكن فى السهل الساحلى سوى شريط من الرمال اقتلعت منه الاعشاب وبعد لآلى يظهر لنا ثانية فنسير على الجادة مدى بضعة كيلو مترات وفى هذه المرحلة أمكننا دفع السيارة والاندفاع بها بسرعة لكى لا نبقى تحت رحمة مد البحر العالى ولكننا بعد قليل ندخل فى الارض الجرداء وتنغرس سيارتنا بأكلها فى الرمال ونحاول عبثاً اخراجها فلا نستطيع الى ذلك سبيلاً وعندئذ أتقدم أنا واحمد نحو القرية التى لمحننا على بعد ثلاثة كيلو مترات قمم دورها وأكواخها التى تغطيها بعض أشجار الدوم وفيها نقابل خمسة عشر رجلاً كلهم أنصاف عراة يلبسون فوق رؤوسهم طرابيش غريبة ويحملون فى أيديهم سلات مضمفورة وكانوا فى سيرهم يغزلون قطعاً من شباك الصيد كما تغزل النساء الجوارب وقد ساعدنا هؤلاء الصيادون المهرة بهمة ونخوة على افراغ السيارة وتحقيقها من الحقايب الثقيلة وعلى اخراجها من الرمال وهكذا استطعنا مواصلة سفرنا ولكننا عندما وصلنا الى « الخوخه » كان الجو قد اظلم وكان الليل قد ارخى سدوله .

ولقد كان وصولنا الى (الخوخة) سبباً في اضطراب أهاليها وهياجهم فكانوا يهرعون الينا من عرائشهم المبنية من الطين وكانت وجوههم الناحلة المرهقة تبتسم اعجاباً بنا وقد جرت نحونا أيضاً النساء وكن واضعات خمرهن الحمراء فوق وجوههن وكذلك الأطفال العراة وفي رقابهم حلقات من الحديد هي تمائم تقيمهم شر الجن وشر حاسد اذا حسد . وكان هؤلاء الصغار يقفزون قفزات هائلة علامة الفرح والمرح والسرور .

وأخيراً هرع الينا « العامل » وهو مرتد « فوطه » (١) مخططة وقد وضع فوق رأسه قطعة من الخرقة ولكنه اذ علم أن هناك في السيارة أحد الأجانب عاد ثانية الى داره وخرج اليها بعد قليل مرتدياً حلة رمادية زرقاء وحراماً أحمر تبرز منه قبضة خنجر مزركشة بالذهب وقد عرض على في لطف تمضية الليل في « الخوخة » في داره ولما رأى اصراري على مواصلة السفر أعطاني أحد جنود الحرس وعندئذ سرنا بعد أن شكرته ومعنا رجلان فوق « رفارف » السيارة هما واحمد والجندي وكلاهما كان معيناً لارشادنا الى طرق اليمن الصعبة ولكننا في هذا الظلام الدامس سرعان ما نفصل الطريق ونخرج عن الجادة وعندئذ نتجه نحو نور كان ينبعث من بعيد متخطين الكثير من الأحراش والكثبان الرملية حتى نصل إلى قرية مكونة من عدة أكواخ وقد سأل الجندي الذي لا يعرف السخريه ولا المزاح بعض الأهالي عن طريق السيارات وهامم الأهالي يرشدوننا اليها ولكننا لا نكاد نقطع بعض الكيلومترات حتى ننحرف من جديد في الأرض الجرداء وعندما نصل إلى القرية التالية ينادى الجندي جمعاً من الوطنيين ويختار من بينهم أربعة من أقواهم بنية وبكفهم بالجرى على الطريق أمام السيارة وكان يوجه اليهم من آن لآخر بعض كلمات غامضة .

(ترى ماذا كان يقول لهم ؟... كان يقول انهم إذا لم يطيعوا فان العامل سوف يرسل اليهم جنوده)

(١) هذا هو لباس أهل المناطق الساحلية في اليمن وذلك لندة الحر

على أن هذا التهديد لم يكن في محله ولم يصدر ما يستوجبه لأنهم كانوا يحجرون دون أن يبدو عليهم أى ملل أو أى امتعاض وكان النور المنبعث من مصابيح السيارة ينير ظهورهم السمراء العارية ذات العضلات التى كان يتصبب منها العرق بسبب ما نالهم من الجهد والكلال من جريهم الطويل فى تلك الليلة الحارة وكانوا من وقت لآخر يديرون نحونا وجوههم لينظروا بدهشة طفلية — النور القوى الذى كان يتبعهم وكانوا يتسمون فتبدو ثناياهم الشديدة البياض .

وبعد أن قطعنا نحو الاثنى عشر من الكيلومترات وصلنا الى قرية استبدلنا فيها أربعة رجال بدلا من الأربعة الذين كانوا معنا وسرنا على هذه الحال من قرية الى قرية — ونحن نضرب فى هذه الأرض الجرداء — فى أعقاب الرجال الذين كانوا يتجددون فى كل قرية حتى دخلنا فى منطقة المزروعات المحيطة بمدينة « زبيد » حيث كانت تظهر الطريق بجلاء بين حقول الذرة وعندئذ استغنيينا عن أدلائنا وواصلنا السفر بمفردنا

وسرعان ما نرى على ضوء المصابيح برجين كبيرين قد برزا من حائط منخفض وقف أعلاهما ثلاثة من الجند يلبسون فوق رؤوسهم عمام خضراء ولما تقترب منهم نسمع منهم صوتا يسألنا بقوله : من الذى فى العربة ؟ فيجيبه عبد القادر بخشونة ببعض كلمات لم أفهمها وسرعان ما يفتح الباب مصراعيه الثقيلين . وعندما أسأله عما قاله يقول : « قلت لهم أنه سيد عظيم »

أما مسألة وجود مأوى للغريب فى مدينة يمنية فمسألة لا تخلو من المشقة ولا سيما اذا كان ذلك فى الساعة العاشرة مساء والفندق هو مؤسسة لاحظ لها هناك حيث لا تزال الضيافة نوعا من البهجة والسرور للأهلين ولا تحتاج الى الفنادق الا البلاد التى أطفأت فيها المدينة نور المودة لا البلاد التى يكون فيها المسلم الطيب جد سعيد بان ينال شرف استقبال مسلم طيب آخر فى داره ليغمره بمودته ولطفه .

ولكن ترى ماذا يكون الحال اذا كان هذا الزائر من غير المؤمنين ؟

لقد قال لى عبد القادر أنه ليس أمامنا الا الذهاب الى العامل .
ولما أقفل مصرعا الباب الجنوبي لمدينة « زبيد » خلف أكتافنا اجتمع
العسكر كلهم حولنا وأخذوا ينظرون الينا فى دهشة على أنوار مصابيحهم
الحرء وقد حمل كل منهم فى يده حزمة صغيرة من أوراق القات أخذ يعضغ
فيها فى هدوء وطمأنينة ، ولكن بماذا كانوا يتمتعون عندما كانوا يقدمون
على التسكيم ؟ كانوا يباغتونا بكلمة خاطفة صائحين : العامل — ثم يأخذون
فى الجرى أمامنا مسرعين فى طرقات « زبيد » الضيقة المقفرة الملتوية وعندما
يصلون إلى دار المواطن الأكبر كانوا يهجمون بجموعهم على السلم وهم يتحدثون
جلبة صاحبة وضوء جهنمية ثم أنهم بدون أن ينتظروا وصول رب البيت
يدخلون فى « المفرج » ويساعدوننى على ارتقاء احدى الأرائك العالية
المصنوعة من أعواد الصفصاف والتي يطلق عليها اسم « العنجريب » وكان
« المفرج » مفروشا ببسط فارسية وضعت فوقها وسائد من الحرير صفت
على طول الجدران ثم يجلسون صامتين فى شكل نصف دائرة أمامى وعيونهم
متجهة نحوى وتقرئ نغورهم عن ابتساماتهم كما لو كانوا يريدون أن يفهمونى
أنهم يكونون جد سعداء لو أتيح لهم القيام لى بأية خدمة ومع ذلك فانى
أشعر بشئ من الارتياح والانشراح عندما أرى نهاية هذا الصمت عند
وصول العامل .

« والمفرج » هى بهو الدار الثمنية ويتكون فى بعض الأحيان من
مقصف فى منتصف الحديقة وأحيانا يكون كما هو هنا غرفة مرتفعة فوق
سقف الدار نظيفة طلقة الهواء وباردة بين سطحين تحميها الجدران العالية
من النظرات الخبيثة ويصل مع العامل بعض الخدم فيضع أحدهم فوق المائدة
نرجيلة مزركشة مصنوعة من الفحاس الأصفر قد وشيت بزخارف لطيفة من
الفضة وبها خرطوم أحمر من الجلد بالغ الطول مزين بشرائط وخطوط متعددة
الألوان كما وضع « البورى » المصنوع من الصلصال والذي يفتح الى أعلى وقد
ملئ بالدخان المزروع فى حضرموت والذي يصدر من المكلا فى كميات كبيرة
الى الشرق الاسلامى ويضع الخادم بعناية كبيرة فوق التبغ قطعاً موقدة من

الفحم ولكن ترى لماذا يجب أن يتأكّد من صلاحية النرجيلة بأخذه بعض أنفاس من الدخان منها قبل تقديمهما للضيف الأجنبي ؟ ولعل هذا هو ما ألجأني إلى تدخين سجائر عدن الكريهة !!

وعامل « زبيد » رجل يبدو عليه الوقار والوجاهة وهو ذكي لطيف المعشر يصبغ لحيته بالحناء ويضع فوق أكتاف أولاده شيلاناً صغيرة غريبة بيضاء فيها مجوم زرقاء وقد تطف وعرض على المبيت في مفرجه ولكن ترى هل يوجد أى اعتراض فى أن أخرج فوق السطح سرى السفرى وأنام عليه ؟ لم يكن هناك ما يمنع ذلك وكان فى استطاعتى أن أفعل ما بدا لى ولكن لىكن ذلك فىما بعد . وقد فرشت أرضية « المفرج » بالحصى ووضعت فوق الحصى (صينية) من النحاس يبلغ طول قطرها نحو المترين وقد وضع الخدم فوق الصينية عدة صحون ملأى بالأرز واللحم والبيض والخضر والفاكهة . ها هو ذا عبد القادر يتدارك الأمر ويعتذر بلباقة عن عدم التروى الذى أقابل به دعوة العامل لى بتناول الطعام معه ومع الموجودين ولكى يبرر حركتى هذه أخذ يقص الكثير من عوائد أهل الغرب الغربية ثم ينتجى لى جانباً حيث أخذ فى تناول طعامى بمفردى بحيث كنت أرى وجوه الآكلين الجالسين حول الصينية الكبيرة والذين كانوا يظهرون ارتياحهم وسرورهم لىكى يفهموا رب الدار بأن طعامه سائغ لذيد وعندما ينصرفون وأخذ فى النوم كان مواء القطط يقطع على لذيد رقادى الذى انتهى فى الصباح الباكر على تغريد الطيور التى اتخذت لها عشوشاً تحت سقف « المفرج »

وعند انبلاج الفجر كانت « زبيد » كلها قد استيقظت وكان الأهالون قد خرجوا من مساكنهم الواطئة وانتشروا فى طرقات السوق المسقوفة بالحصى يبتغون من فضل الله — ترى هل التبكير هو عادة أهل هذه المدينة القديمة العاملة الكادحة التى باركها النبى محمد والتى تحتوى على أحد المعاهد الإسلامية الكبيرة فى بلاد العرب ؟ — فى تلك الساعة المبكرة بدأت مشات المطارق الخشبية تدق دقات منتظمة فى جانب من المدينة فوق السنادين التى امتدت فوقها الأقمشة الزرقاء المراد صقلها وتلميعها لادخال البهجة والسرور

على نفوس النساء اليمنيات . على أن ثروة « زبيد » ليست وحدها في صنع اقمشتها الثمينة ولكنها أيضاً في حقولها العظيمة الياضعة التي تمتد حولها والتي يرونها في فصل الأمطار أحد الوديان السخية فيكسبها الخصب بما يجلب اليها من كميات كبيرة من الطمي المصلح الذي تجرفه المياه من الأراضي المرتفعة عند اصطدامها بها . واذا ما خرج الانسان من المدينة متجهاً نحو الشمال فانه يسير عدة كيلو مترات وسط المزروعات الزاهرة والحقول الياضعة وعندما تبتدىء الأرض القاحلة الجرداء يدرك الانسان انه قد بلغ أرض « الزرائق »

والزرائق شوافع متمسكون بمذهبهم الشافعي الذي هو أحد المذاهب الاسلامية الأربعة بينما يتكون معظم أهالي اليمن من « الشيعة » ويطلق عليهم اسم « الزيود » ورئيسهم الأعلى هو الامام يحيى . والزرائق لصوص وقطاع طرق مشهورون ولم يخضعوا للسلطات اليمنية في صنعاء الا من بضع سنوات وعندما كانت اليمن ولاية عثمانية كانت بلادهم تتمتع بالاستقلال الذي احتفظت به بعد تحرير اليمن من النير التركي ولم تفقد هذا الاستقلال الا في سنة ١٩٢٨ عندما جهز سيف الاسلام احمد أكبر أنجال الامام يحيى حملة عسكرية ضدهم في تهامه وانتصر عليهم بعد صراع دام سنتين عندما استسلمت قلعة « بيت الفقيه » . ولا تزال تشاهد الى الآن في السهل الممتد بين زبيد والحديدة بقايا معسكرات الزرائق وهي أكواخ فقدت سقوفها التي كانت مصنوعة من القش والتي أخذت تتداعى جدرانها الطينية الصغيرة المستديرة بفعل الأمطار وهي العلامة الوحيدة الظاهرة والاثار الوحيد الذي تخلف عن المعارك التي لم يمض عليها زمن طويل ولكن الخلاف المذهبي لا يزال يبقى الأحقاد كامنة في بعض صدور الفريقين (١) . والزرائق المزمون بارسال عدد من الرهائن الى صنعاء والحديدة يخيل الآن انهم كفوا عن السلب والنهب للعودة الى الاتجار والعمل في الحقول ورئيسهم هو « الشيخ احمد

(١) انه لا يوجد الان ولا أثر له

الفتنى » . ويعيش هذا الزعيم آمناً مطمئناً في قريته الساحلية « الطائف »
على أن هدوءه هذا فيه طعم التربص والانتظار (١)

وبيت الفقيه ككل سكانها مدينة حربية . وهذه المدينة التي كانت في
زمن ما محطة التجمع والتصدير التي كانت تحمل اليها كل حاصلات اليمن من
البن ليس بها الآن منه كميات هامة ولكن قلعتها هي بناء ضخيم ذو جدران
عالية وتقوم فوق جدرانها ابراج مستديرة مرتفعة ويرى مسجدتها الكبير
من بعيد بمئذنته البالغة الارتفاع وليس فيها عدا ذلك سوى بيوت واطنة
واكواخ ولا شيء غير ذلك .

وتقع عاصمة الزرائق على سفح الجبل وهي نقطة تقابل لعدة طرق من
طرق القوافل وفي هذه المنطقة تنكسر على الهضبة عدة وديان ذات مزارع
يائعة تعطى محصولات وفيرة ومن بيت الفقيه الى الحديد تنعطف الطريق
ثانية نحو البحر في خلال الاراضي الرملية الجرداء حيث يندر وجود القرى
وربما كان هذا هو الجزء الاكثر جدياً في تهامة كلها الذي تحاول القوافل
ان تقطعه بمنتهى السرعة . وتنعكس أسنمة الابل من بعيد خلف الاحراش
الواطنة على الافق وتسير الواحدة تلو الأخرى على مسافات متساوية ببطء
وتتموج كما لو كانت تحاول تمثيل حركة البحر على مسرح احد الملاهي
التمثيلية .

ويشير ضجيج محرك السيارة القافلة كلها فتقف الابل والحير والماعز
مضطربة في الانتظار ولكنها عندما تصير السيارة على بعد العشرين قدماً
منها تتفرق وتجري مذعورة في الأرض الجرداء ومن خلفها الرجال وقد
تكون القافلة في بعض الاحيان ذات اهمية اذ قد يكون فوق متون الابل
شيء أثنى بكثير من كيس من البن او اربعة صفايح من الكيوسين اذ

(١) توفي هذا الشيخ من نحو ست سفوات

يكون احد الاغنياء العرب راكباً فوق بغلة بيضاء ذات بردعة جميلة وهو مسافر مع حريمه وعند اقتراب السيارة من القافلة يخلع أحد الخدم « فوطته » ويفغطى بها رأس البغلة لكي لا تخاف كما يسرع الخدم الآخرون الى المحافظة على الابل بينما تخفى النساء وجوههن تحت الشيلان المتعددة الألوان .

اما كئيبان تهامة الرملية فانها تثير موجاتها على اسوار الحديدية وتفتح لها طريقاً بين « العرائش » المصنوعة من القش والتي يسكنها حمالو الميناء وأول تحية تقدمها الحديدية للزائر لاتسره كثيراً ولكنه بمجرد أن يدخل في المساكن يجد أمامه جبانة فسيحة الارعاء ويخيل أن المقابر لاتسبب للعرب الحزن أو الانقباض اذ أنهم شيدوا حولها مساكنهم كما صفت مقاهيهم موائدها على الطريق الموصلة بين المدينة والقبور . وأما الحياة في الحديدية التي تعتبر أطرف وأهم مدن اليمن فانها تنحصر في طرقاتها المؤدية الى الميناء الصغير الذي لا يمكن أن تدخله الا « السنايك » وفي جبهة مختلفة الاشكال بديعة فاتنة من التجار والهجانة وكبار الموظفين ومن الحمالين السود ومن النساء الرشيقات المبرقععات ومن البدويات المحجبات بالخرق وكل هؤلاء يجولون في كل مكان وفي كل طريق فتبعث مناظرهم السرور والبهجة في النفوس .

وتشرف على ميناء الحديدية أجمل قصور المدينة ذات البوابات المغربية اللطيفة والمشربيات الأنيقة وقد بنيت كل هذه القصور للموظفين الترك ولسكنى قناصل الدول الاجنبية في العهد الذي كانت البلاد الاخرى تستطيع أن ترسل الى اليمن ممثلها . وقد تهدمت بعض هذه القصور في أثناء الحرب العظمى بفعل القنابل التي ألقيت على الحديدية ولم ترفع أنقاضها كلها الى الآن .

وبعد أن نمر بميادين أخرى تليها جبانة أخرى نخرج الى الارض الجرداء وعندئذ نرى الطريق الموصل الى صنعاء يتجه نحو الشمال على طول شاطئ

البحر قبل أن ينثنى نحو جبال حراز ولكننا عندما نهيم بالخروج من
المدينة يقفل الجنود الطريق في وجوهنا اذ يجب على مايلوح أن نحصل على
جواز مرور من الحاكم .

ولكن ترى ما فائدة تصريح الامام ؟

أما تصريح الامام فلا بأس به ولا بد منه اذ بدونه ما كان لى أن أحظى
بالتحدث الى هؤلاء الجنود الظرفاء المخلصين فى طريق أية مدينة يمنية . ولكن
اذا ما وصل الى الحديدة الأجنبى الذى يريد مواصلة السفر الى مدينة الزيديين
المقدسة فانه يتحتم عليه أن يحصل على تصريح من الحاكم بعد موافقة تاغرافية
من الملك عليه .

وإذن فما علينا الا الصبر والاستسلام لتذوق مباهاج الحديدة ومسراتها !!!

بكرة . . . إن شاء الله !

لابأس من الإقامة في مدينة الحديدة في قلب الشتاء ليس كذلك؟ ولم لا يكون ذلك ودرجة الحرارة فيها لا تنقص أبداً عن الخمسة والثلاثين ؟ وقد يحدث في بعض الأحيان أن يشعر الانسان بأنه يكاد يختنق من شدة حرها لان الريح الموسمية لا تثير في الجو عند هبوبها إلا كتلامتراصة من الهواء اللافح الذي يشوى الوجوه وفي المساء لا يكون الجو محملاً إلا في الخلاء وفي خارج المدينة ولكن اذا ما اقترب الانسان من دور السكنى فانه سرعان ما يشعر بالحرارة التي تجمعت طول النهار والتي ليس من اليسير ان تبديد أو تفرق بسرعة وهي حرارة شديدة قاسية .

ومن أحد الافنية يصير أحد الأبواق المزعجة المنكرة الصوت على اذاعة أنغام متقطعة غير منسجمة ولا متجانسة وأحيان شاذة ناشزة . . . ترى ما هذا الذي اسمع ؟ ألم يقولوا لنا أن الآلات الموسيقية محرمة في مملكة الامام كل التحريم ؟

نعم انها محرمة وممنوعة منعاً باتاً اللهم الا ما كان منها مخصصاً للجيش : ولكن ليس في استطاعة رياسة « الحرس » أن تتجنب هذا الشذوذ في الاغانى ؟ ليس ذلك شذوذاً في اللحن ولكنها مقطوعات متنوعة جريئة يثبت بها النافخون في الأبواق صلاحيتهم ومقدرتهم وطول أنفاسهم

على أنه على أثر كل صوت يخرج من ذلك البوق كان يتردد غناء النسوة اللاتي يعملن في فرز حبوب البن . وهؤلاء لسن عربيات صميات بل هن من سلالة ذلك الجنس الذي ظهر في البلاد اليمنية منذ عهد الغزو الحبشي وهن يسرن في الطرقات ويخرجن الى الاسواق سافرات الوجوه ويرتدين أثواباً صنعت من أقمشة ذات ألوان زاهية ويقضين طول نهارهن مقترشات بلاط يسيو التصدير وأمامهن كومات عالية من حبوب البن وذلك لان هذه البضاعة

النفيسة التي تحملها القوافل من مكان انتاجها - والتي يستسيغها العالم بأسره ويتلذذ بشرها يجب أن تمر قبل كل شيء من خلال ماكينات أولية بسيطة ذات صوت عال وضجيج يصم الأذان لتنظيفها وتخليصها مما يكون قد علق بها من الغبار والحصى والقشور ثم بعد ذلك تسلم الى هؤلاء النسوة اللاتي يأخذن في فرز الحبات واحدة بعد واحدة ويقمن بعملهن هذا في هدوء وسكون وهن يغنين في أثناء ذلك أغانيهن المشجية ايرفن عن نفوسهن ولكي لا يشعرن بالسآمة والملل من هذا العمل المرهق ولكي يستجلبن النعاس الى جفون أطفالهن الصغار الذين يتمددون فوق كومات البن وهم يكادون يكونون عراة الاجسام .

ويوضع البن بداخل أكياس مزودجة نسجت من الياف النخيل هي « تعبئة » مخا التقليدية ثم تحمل هذه الأكياس الى الميناء بواسطة حمالين يتناول الواحد منهم قطعة من العملة النحاسية عن كل كيس يضعها في فمه ويمجى . وفي الميناء ينتظر حمالون آخرون يدخلون في المياه حتى صدورهم وهم يحملون هذه الأكياس ويلقون بها في « السنايك » وهم في عملهم هذا يغنون أغانيهم ويرددون أهازيجهم المشجية . وواضح أنه اذا فرض الصمت على هؤلاء أو أولئك لما استطاع واحد منهم أن يحرك أصبعاً واحداً من أصابعه . وكذلك يغني المتسولون المكفوفون الذين يسرون في طابور وكل منهم واضح يده على كتف زميله الذي يسبقه من خلال الطرقات المزدحمة . ويغني أيضا المجانين الخطرون الذين بسبب انعدام الممارسات في اليمن يلتجئون اليها ويحبسون بين جدرانها - يتركون حيث يتسكعون في طرقات « الحديد » كما يشاءون كذلك ليس من الامور الهينة ان يخرج الناس للتجول في طرقات الحديد دائماً لان تاجر الجلود لا يرى مانعاً يمنعه من أشغال مائة متر مربع من أرض الميدان لنشر بضاعته وتجفيفها ثم يبقى الى جانبها ويدهر اوة طويلة لمطاردة الصقور والغربان التي تجذبها رائحة الدباغة فتأتي جماعات ووحداً وترتطم بعضها ببعض وهي تنقض بشراة على هذه البضاعة الكريهة الرائحة . كما أن تجار الحبوب ومصدرها يمدون الحصير على أرض الطريق ويأخذون في تعبئة

الذرة والبن والسمسم والحناء التي يصدرونها الى الخارج بواسطة رجالهم أما من أقام حفلة من حفلات العرس أو الختان فإنه يجسد الحرية اللازمة لاغلاق الطريق اغلاقا تاما في الجزء الذي يقع امام داره ويقيم فيه بالسجاجيد والحصير بها فبخما يستقبل فيه كل مدعويه .

أما السوق فإن كل الطرق الموصلة اليها تكتسحها القوافل وتزدحم بالجمال والحير والخليل والأغنام والماعز والأكياس المنتشرة على الأرض وبالقرب وصفائح البنزين والكيروسين وتكتظ بمجمهرة كبيرة من التجار والحالين والهجانه ورجال الجمارك وكل هؤلاء لهم أصوات وأحاديث لاتنقطع وجلبة وضوضاء لاتهدأ يباريهم فيها من المقاهى التي تفتح أبوابها حول السوق — الزبائن المتمددون فوق أسرة طويلة من الصنصاف أمام الموائد وأمامهم النرجيلات المزركشة يخرج منها الدخان فيملا الهواء

وفي الطرقات الملتوية القريبة من السوق يوجد دائما جمهور كثير الضجيج والجلبة فيجلس الباعة على أبواب حوانيتهم يشربون ويدخنون هم أيضا وبضاعتهم معروضة على مقاعد مستطيلة أمامهم ومن آن لآخر يحرك الواحد منهم دون أن يبرح مكانه ندبة طويلة يهش بما على بضاعته فيثير غيوما من الذباب وعندئذ يبدو البلح والعنب والخبز والسمسم والحلوى وقد رصت في سلات جميلة متعددة الألوان .

أما جواز السفر إلى صنعاء فإنه لا يصل . . . واذن لابد من مقابلة حاكم المدينة للتحدث معه في شأنه وللذهاب اليه كان يتحتم على أن أقطع طريقا رمليا طويلا تغوص فيه القدم حتى الكعب مدى نصف ساعة على الأقل لان دار الحكومة قد بنيت في خارج المدينة على حدود الأرض الجرداء وأقيم حولها سور من القش وعلى بابها كشكان بنى أحدهما بالطوب وأقيم الثانى من حصير وقد وقف حول كل كشك من الكشكين ستة من العساكر كما علقت في مدخل الدار على الجدران السلاسل والأغلال التي تقيد بها أقدام المسجونين .

وحاكم المدينة شخصية كبيرة محترمة وموظف ذو شأن عظيم وهو

ايضا أحد أفراد أسرة « الوزير » وابن عم أمير « تعز » وقد ولى هذا المنصب الخطير رغم حداثة سنه لأنه قام بخدمات جليلة لمليكه ولبلاده اذ تولى قيادة عدة حملات عسكرية منها الحملة على بلاد العسير ثم انه في أثناء الخلاف الأخير بين الحجاز واليمن قام بالمحادثات والمفاوضات الدبلوماسية وأمضى نيابة عن اليمن « اتفاقية الطائف » التي وضعت حداً للخصومة بين القطرين العربيين ولقد رأيت على جدران البهو الذي استقبلني فيه سيفاً ذهبياً معلقاً وهو الذي أهده له الملك ابن السعود بعد توقيع « معاهدة الصداقة الاسلامية والاخوة العربية »

ولقد ولى ابن الوزير هذا المنصب على اثر عودته من الحجاز وسكن هذا القصر الفخم الذي كان الأمير فيصل آل سعود يتخذ منه حتى أيام قلائل مقرأً لهيئة أركان حربه .

وعبد الله بن الوزير يفيض رقة ولطفاً وتبدو على محياه علامة الفطنة وأمارات الذكاء وقد استقبلني استقبالا حافلا واهتم بالسؤال عن صحتي وعمامصادفته في رحاتي ثم أخذ يسألني عن الأحوال في أوروبا وقدم لي فنجاناً من القهوة وكوباً من الشراب كما حدثني حديثاً مستفيضاً عن أسرته وعن الأعمال التي اعتزم القيام بها في الحديدية لحماية شواطئها من فعل البحر الذي يأكلها تدريجياً .

ولكن ألا يستطيع أن يساهم في التصريح بمواصلة السفر الى صنعاء قبل موافقة الامام ؟

ترى متى تصل هذه الموافقة ؟

بكره . ان شاء الله . قال لي هذه العبارة وهو يبتسم ابتسامة عذبة بدت من خلال لحيته السوداء .

ومدينة الحديدية اذا قورنت بغيرها من المدن اليمنية كانت بلا شك أكبرها حركة وأعظمها نشاطاً ويتم فيها العدد القليل من الاجانب المقيمين في اليمن . وعلى بعد بضعة خطوات منها تتركز معظم تجارة اليمن الخارجية والعبارة التي تسيطر على كل المعاملات وتتردد في كل الأحاديث هي دائماً هذه :

« بكره . ان شاء الله ! » لان مصاعب الحياة وشديتها تذللها هذه الثقة في غديكون فيه الفرج بفضل الله ورعايته

وربما كان ذلك من فطرة عرب اليمن وطبعهم لان أوراق القات التي يمضغونها وسور القرآن التي لا يفتأون يرتلونها لما يثبت ويقوى هذه الفلسفة التي تسهل على الرؤساء والحكام اعمالهم . وحاكم الحديدية رجل فطن خبير بالامور يسعى جهده للاصلاح ويهتم كل الاهتمام بالمحافظة على الروح الدينية في الشعب ويعمل على ذلك بكل الطرق التي يراها والتي يستطيعها وكما ان بطرس الاكبر قيصر روسيا اُثم الروسيين بحلق لحاهم عند ما شرع في انهاض الشعب الروسي وأمر باعدام من لا يخلق لحيته كذلك فعل عبد الله بن الوزير اذ فرض على كل المواطنين أن يرسلوا حول ذقونهم كل ما منحهم الله من شعر كما أنه في أوقات الصلوات الخمس يرسل عساكره للتجول في الاسواق للتأكد من أن الجميع قد أجابوا دعوة المؤذن للصلاة .

ويدخل في الحديدية من « القات » ما يكفي لادخال السرور والبهجة على نفوس ثلاثة أضعاف سكانها على أنه لا تدخلها قطرة واحدة من النبيذ أو من أى نوع آخر من المشروبات الروحية وهذا ما لا يضايق اليمنيين في شيء ... ولكن ترى ماذا يكون حال الاوروبيين ؟

في كل يوم يقف ممثلو الشركات الانجليزية التجارية ووكلاؤها من أعلى دورهم المظلة على البحر ويدورون بأعينهم في الافق عليهم يلحون أية سفينة قادمة لان الاعمال التجارية وحركة المواصلات في البحر الاحمر لا ينتظم لها حال ولا يوجد موعد محدد لوصول السفن أو قيامها بل ان المواعيد تتغير حسب ضرورات الشحن وتبعاً لأحوال البحر والجو ومزاج القبطان وعندما تصل إحدى السفن أمام ميناء الحديدية تلقى مرساها على بعد ثلاثة أميال من الشاطئ وللوصول اليها يجب على الانسان أن يقضى نصف نهار على ظهر احد السناييك وعندئذ فقط يكون في استطاعته تناول كوب من الويسكى اذا شاء . وما يلاحظ على هذا النظام الجاف ان أعضاء البعثة التجارية الروسية الذين يطلق عليهم العرب اسم « المسكوف » من المستطاع أن يتناول الانسان

في دورهم الشاى الفاخر ويستمتع الى شىء من ألحان رواية « كارمن » من اسطوانة في جراموفون قديم أصبحت لكثرة استعمالها تتم عن حشرجة جاحدة لصوت ذلك المغنى المظلوم . ولا يبدو ان الروس يقومون في اليمن بصنقات طيبة أو بأعمال تجارية واسعة النطاق أو وفيرة المكاسب لان منافسة اليابانيين الذين اجتاحتها أيضا بلاد العرب وغزوها بمنتجاتهم الرخيصة الكريمة لا يمكن التغلب عليها بحال . وقد يحدث في بعض الاحيان ان يلتقى التاجر الروسى بعض الصعوبة في تحصيل ثمن بضاعته . ومع كل فهم يبقون هنا بلا عمل ، ويحرمون أنفسهم من شراهم « الفودكا » حيث يستبدلون برد روسيا بجحيم الحديدة

وفي أثناء ذلك يزدحم العرب في سرق القات ويأخذ الباعة في التلويح بأعواده الرشيقة في الهواء وهم يصيحون والناس من حولهم واقفون يتسممون وقد أضحووا في حالة نشوة بينما تكون السماء من فوقهم قد اصطبغت بلون الورد . وهذه هى الساعات التى يزدحم فيها المتسولون وهم الخبراء والعارفون وعلماء النفس البارعون : وفي مناظرهم ما يحزن وما يدعو للسخرية وما يضحك وما يبكى في آن واحد فهناك من يطلب « الحسنة » دون أن يتفوه بكلمة واحدة ومنهم من يطلب المعونة والمساعدة وهو ينشد الاشعار ومنهم من يجلس في ركن من أركان الطريق يستعطف الجمهور بمختلف الطرق والوسائل .

وأخيرا يأتى رجالى لاخبارى بوصول تصريح الامام فاجد أشداقهم جميعا منتفضة وهم يمضغون هدوء فاقول لهم : إذن ومتى نساfer ؟

وعندئذ تطول الوجوه الثلاثة قليلا وتقول في نفس واحد . بكره إن شاء الله !

تستدعى اصوات نفير السيارة كل أهالى « باجل » وتستدعى انتباههم ويغضب « مسعود عوض » غضباً شديداً . ترى ما هذه الطريقة لاخلاء الطريق ؟

وعندما تنحدر القوافل من الضباب والنجوم تتخذ من « باجل » آخر مرحلة لها قبل أن تأخذ في قطع المرحلة الطويلة في الأراضي الجرداء المملوءة بعظام الجمال . وفي « باجل » يلتقي المسافر بالقوافل العائدة من « الحديدة » وهذه القرية التي تعيش من هذه الحركة التجارية هي قرية مضيافة كريمة فإن الجمالة بمجرد دخولهم في مساكنهم ينسخون ابلهم في منتصف الطريق ويربطون عصيهم في أنفاذها بقطع من الجبال وينزلون عنها احمالها ويتركون كل شيء في مكانه كما لو كان هذا الطريق قد أصبح « سمسرة » (وهو الخان) ويذهبون إلى المقاهي حيث يأكلون أطباقا من الأرز ولحم الضأن ويدخنون في نرجيلات ويشربون فناجين من « قشر » البن .

وفي الحق أنه يندر أن تمر سيارة من هذه الجهة وفي أثناء سيرنا في الطريق الذي ينفرج بين الدور الواطئة والاكواخ الصغيرة نخاطر بالارتطام عند كل منعرج بكيس من أكياس البن أو بالاصطدام بالابل التي عند اقتراب السيارة منها يأخذ منها الذعر كل مأخذ وتهب واقفة على أقدامها كأنها أشباح عجيبة هائلة وتقع « باجل » على حدود تهامة على سفح الجبل وللوصول إليها من الحديدة يسير المسافر بمحاذاة البحر مسافة طويلة مارا بعدة واحات صغيرة ملائ بال نخيل وأشجار الدوم (وهي نخيل أخرى تنمو على شريط رفيع من الأرض ويخيل للرائي أنها تنبت من مياه البحر الأحمر) ثم ينعطف بعد ذلك نحو الشرق ويقطع السهل الرمل الذي تنتشر عليه بعض الأعشاب القصيرة . ثم تعلو كثبان الرمل شيئا فشيئا ثم تبدو أكثر ارتفاعا عندما تقترب من « باجل » وسرعان ما نجد بعد هذه القرية أول ساحة من ساحات التلال ثم نلاحظ بعد ذلك أولى التحصينات .

وتبتدىء اليمن الخضراء الحقيقية بالجبال ولكن ما عسى تكون قيمة تهامة الجرداء اذا ما قيست بهذه الهضاب الغنية الخصبة الزاهرة وأى شأن لسكان تلك الأرض القاحلة مع سكان الجبال الخضراء اليانعة ؟ أما سكان تهامة فهم من جنس أقل عراقة وصفاء ويدينون بمذهب اسلامي آخر غير مذهب اليمنيين سكان الجبال وكل البلاد المنخفضة قد فتحت من عهد قريب اذ

احتلت جيوش صنعاء في سنة ١٩٢٥ مدينة الحديدة وسهلها حتى بلدة « ميدى » وفي سنة ١٩٢٩ تمكنت من اخضاع قبائل الزرائق وأخذت من أبناء رؤسائها رهائن . وموطن اليمنيين انما هو فوق هذه الجبال الحصبة المنيعه البعيدة المنال حتى أن ملكهم لم يحاول قط الذهاب لرؤية البحر أو لزيارة المدن الساحلية ولم ير ضرورة لانهارة الفنارات المنشأة على سواحل اليمن

أما الوديان المؤدية إلى النجود وعلى الأخص الوديان التي يخترقها الطريق المؤدى إلى العاصمة فانها سرعان ما تبدو بجلاء وتظهر طبيعة البلاد على حقيقتها وتم عما بها من ثروة زراعية هائلة وخير وفير وأول ما يدخل الانسان بين هذه النجود يرى حصنا شاهق البنيان شيد فوق أحد التلال يسد الوادى سداً هو حصن « باجل » الذي يلتهب بنيانه المقام من الحجارة الحمراء ويتوهج عند اقتراب الغروب وعندما يغمر الظل هذا الوادى السعيد .

ويطول الطريق بين هذه الساحات الجبلية التي تزداد ارتفاعا وصلابة ثم يتقدم الانسان بعد ذلك في الرمال بين حشائش وأحراش وأرض ليس بها من الأشجار غير اللبخ الباسق ولكنه سرعان ما تقع عيناه على الوديان الانيقة الكثيرة والخضرة اليانعة والمياه الجارية في كل مكان التي تخفف من حدة تلك المناظر الرملية الصفراء ولا تلبث أن تظهر من فوق الصخور الناتئة أبنية عالية قاسية كلها مغلقة كأنها الحصون التي لها لون الجبل كما تظهر أرصفة وعرة قدت من الصخر تتفتح فيها بعض الطرق والمنافذ حتى ليخيل للرأى أنها من الكوات التي تطلق منها الأسلحة النارية في بعض القلاع وما هذه إلا بيوت لها ذلك اللون الحربى العظيم تبدو كأنها أبراج للحرس أو حصون للدفاع حتى ليحسب الانسان أنه قد شيدها شعب من المردة والجان لحراسة مدخل محراب هيكل قدسى عجيب .

ويسير الانسان في هذه الابنية العابسة الصماء التي تشرف على الطريق وعند ما تغرب الشمس ويرى الليل سدوله يخيل أنها تقفح عيونها القلقة الحائرة العديمة الثقة التي تتبع المسافرين بنظراتها وترقبه أنى سار .

على أن القرى فى بطون الوديان أكثر بساطة وأكثر سكانا وعمرا فقرية « عبال » التى تقف فيها لقضاء ليلتنا هى أشبه شىء بقرية من القرى الأفريقية منها إلى قريه اسيوية وكذلك أهلها يزيد لون بشرتهم لشمرة عن لون بشره من رأيانهم من سكان البلاد ويتكلم سكانها لغة عامية لم يفهمها أحد من رجالنا ويسير أطفالها فى الطريق حفاة الاقدام . وأجل مساكن « عبال » هو « عريش » لهجدران خشنة جافة طليت من الداخل بالجير وسقفت بالقش ويقدم فى نظير ثلاثة ريالات فى الليلة الواحدة للمسافرين الذين يضطرون للعبث فى القرية ولكننا بمجرد أن نرش أرضيته بقليل من سائل قاتل للحشرات لا نلبث أن نشهد والدهشة آخذة منا كل ماخذ زحفا سريعا خاطفا غير منتظم لجيوش جرارة من الهوام الصغيرة تتسابق فوق الجدران وعندما نرش من هذا السائل على الجدران سرعان ما يسود لون القوائم والأغصان التى يستند عليها قش السقف وهذا ما يدعو عبد القادر إلى حمل سريري السفري الصغير إلى الهواء الطلق بعد أن يغرس فى الأرض ساريتين ينصب عليهما السكة (الناموسية) وفى وسط هذا الظلام الدامس ينفرد مضجعى الأبيض فى الفضاء ويبدو كأنه احد الأضرحة التى يقيم حولها اليمينون الستور والاعلام الصغيرة الخضراء والحمراء والبيضاء . فهل ترى يحدث أنى عندما أستيقظ فى الصباح أجد على حين بغتة حولى جماعة من البدو يصلون ويتبركون حول سريري وعندما يرونى أنهمض من فراشى تأخذهم الدهشة من هذا البعث الزائف وينتشرون فى الأرض ليبشروا قومهم بهذه المعجزة الجديدة ؟

أما الآن فلا توجد إلا الكلاب الضالة هى التى تقترب منى ذاهلة لتفحصنى ولما يخرج الأهالى بعد من أكواخهم الحقيمة وعندما يخرجون فى الطرق أرى رجالا أنصاف عراة كما أرى النساء بقبعاتهن المخروطة الشكل يتحركن أمام النيران الموقدة وسمع من حولى أصوات منكرة وصرخات غير مفهومة . ترى لم هذه الكثرة فى العبارات فى أحاديث أهل « عبال » ؟

أما رجالى فلا يعلم إلا الله أين ذهبوا وأما أنا فاشهد منظرا محزنا اذ تقع مشادة عنيفة بين امرأتين من نساء القرية وهنا أسمع صرخات تصم الآذان

وعبارات متقطعة تنتهى كل منها بعلامة من علامات الاستفهام ولا تلبث هذه الأصوات أن ترتفع وهذه النغمات ان تلو علواً كبيراً ويظهر فيها التهديد والوعيد ترى هل تتخلص المتخاصمتان آخر الامر مما فوق رأسيهما لتمسك كل منها بشعر الأخرى ؟

ولكن هاهى ذى المشاجرة تهدأ على حين غفلة وتنتهى المناقشات ثم لا تلبث القرية أن يسودها صمت عميق وتخرس كل الألسنة فلا تسمع إلا غناء الصراير ونقيق الضفادع يتردد من كل الأنحاء ثم نسمع نباح الكلاب ثم استغاثة انسان ثم لا نلبث أن نرى أسنمة ابل تسير من خلف السور وعندئذ ترتفع الاصوات من جديد حول القافلة العائدة ثم يسود الصمت مرة ثانية ويقطع هذا السكون بكاء أحد الأطفال وهو الصوت البشرى الوحيد الذى يمكن فهمه وتمييزه بين أصوات هذه الخلائق الجامحة .



كان طريق صنعاء القديم المؤدى الى « عبال » يسير فى اتجاه « الحجيبة » وكان يقطعه المسافرون على متون البغال فى صهودهم فى جبال « مناخة » أما الطريق الجديد فهو أطول قليلا ولكن من الممكن ان تسير فيه السيارات والعربات ووسائل النقل الميكانيكية ولكن مما لاشك فيه أنه مما يحزن حقاً أن يضطر الانسان إلى عدم دخول مدينة « مناخة » ذات الشهرة العظيمة والمناظر الخلابة ولكن مما يهون ذلك اجتناب دخول سوق « الخميس » الذى هو المحل المختار للبراغيث اليمنية . على أن هذا الطريق يحتوى أيضا على أشياء فائنة جذابة تسر النفس ومناظر تبهى النظر على أنه لا يخلو من بعض المضايقات وفى كل حقل من هذه الحقول تظهر تكعيمات الغنب فى صفوف منتظمة طويلة لا آخر لها يقف الحراس من فوقها يلقون من آن الآخر بصيحاتهم المزعجة لابعاد الطيور والعصافير الشرهة عنها

ونجد فى مدينة « العبيد » جمهرة كبيرة من الخلائق الصاخبة قد اجتمعت بين دورها الصغيرة المشيدة بالاحجار الخشنة . انه يوم السوق وفيه يأتى

رجال قبائل المنطقة للمقايضة على غنمهم وماعزهم بما يحتاجون إليه من ملح وكبروسين وأحذية وفوط وما إلى ذلك . وإذا ما سار الإنسان بعد ذلك يجد نفسه قد دخل في واد غير ذى زرع ويكون مسيرنا فيه مدعاة لهرب قبيلة صغيرة من القردة عندما تشعر بأنها قد أصبحت في مأمن منا فوق الجبل تسمعنا بصرخاتها الغاضبة كل ما تكتنه من حقد وكرهية للمدينة الميكانيكية . وقد ضاقت سيارتنا في طرقات اليمين كثيرا من الناس من جملة ورعاة أغنام ومسافرين وبدو رحاله وفلاحين وتجار لم يظهر احد منهم لنا استيائه ولم يفتح فمه بكلمة احتجاج سوى القردة « الماكاكى » التى تسكن وادى « السلفية » . والمناطق التى تسكنها تلك الوحوش الهاعبة يلطف مناخها ويحمل مناظرها ما ينبت فيها من ثمر عجيب يقال له « أصبع مريم » . ترى هل يوجد نبات له شكل أدعى للضحك والسخرية من هذا النبات ؟ ان له لجزعا عظيما جديرا بشجرة هائلة ذات ساق عالية ولكن هذا الجزع سرعان ما يصفر حتى أنه بعد ارتفاع متر واحد ينقبض ويتضاءل إلى أصغر حجم وتحمل هذه الشجرة المخروطة الشكل قليلا من الأغصان الدقيقة العارية من الاوراق تنتشر فوقها زهرات صغيرة حمراء تحملها أوراق دقيقة .

ها نحن اولاء نرى على الطريق من ناحية الوادى الاخرى شيئا يتصاعد منه الدخان له بريق يتقدم نحونا ترى ما هذا الذى نرى وما عسى أن يكون ؟ إنه ويا للهول سيارة أخرى وهى أول سيارة نقابلها في طريقنا بعد أن تركنا أرض عدن . ترى أيكون فى استطاعتى أن أعرف إلى أى جانب من جانبي الطريق يجب المسير فى الطريق اليمنى ؟ حتى ولا مسعود عوض يعرف ذلك وهاهوذا يمشى فى منتصف الطريق وهو على استعداد للميل إلى هذه الناحية أو تلك حسب ما تقتضيه الظروف وهاهوذا السائق الآخر يحذو حذوه ويتقدم نحونا بسيارته الضخمة وهو أثناء مسيره ينفخ فى بوقها بغضب وجنون نفخا متواصلا ومسعود هو الآخر لا يوفر بوق سيارته ويبدو على وجهه الملل والغضب ويكاد يتميز من الغيظ لان السيارتين أصبحنا على مسافة خمسين مترا من بعضهما ولكن ها نحن اولاء نرى السيارة الأخرى تنطوى على حين بغتة

وتنعطف في داخل الحقول التي على أحد جانبي الطريق وهي تشرئب بمقدمتها الى الاعلى ثم لا تلبث إلى أن تعود سيرتها الاولى وتستأنف طريقها بعد أن نكون قد مضينا في طريقنا بسلام .

وفي الظهر نصل إلى « حمام على » وهو المكان المشهور بمياهه المعدنية وبما أنشئ فيه من الحمامات التي يقصدها الناس من كافة أنحاء اليمن في الفصل المناسب وتتجمع مياه الينابيع في هذه المؤسسة التي هي مبنى هائل طليت جدرانها باللون الأبيض وتبدو واضحة تمام الوضوح فوق الصخور السمراء التي يذهب اليها المرضى بعد الاستحمام للاختباء تحت الارض بقصد الاعتكاف قليلا في كهوفها القديمة المنحورة في الجبل كأنها خلايا النحل .

بعد ذلك نسير طويلا في وديان « الحرس » لالشيء الا لكسب مرحلة من المراحل وتوفير مسافة من الطريق لان طريق السيارات الى صنعاء يسير في محاذة المرتفعات وقد وجد البناءون اليمنيون كثيرا من المصاعب منذ سنين في شق الصخور وقطعها وفي هذه المرحلة نضيع من الوقت ما لا يقل عما قضيناه في قطع باقي الطريق .

ويسير الطريق على جوانب جبال شاهقة تتخللها وديان يانعة وتتناثر على جوانبها قرى كثيرة بها مآذن صغيرة تتجمع فوق قممها وكم كان يسرنا أن نقطع هذا الطريق لو لم نضطر لانزول عدة مرات من العربة لدفعها لان عجلاتها كانت تدور « على نفسها » في الحصى والرمال دون أن تستطيع التقدم .

ولكن ها نحن أولاء بعد جهود مضية ومتاعب نلاقيها من الرمال المترامية ومن محرك السيارة نصل أخيرا إلى رأس ممر صنعاء ولعمري ان عظمة منظر هذه الهضاب الياقة لتنسى الانسان كل تعب وعناء وهذا هو ما يدعوا اليمنيين للافتخار والمباهاة بمجاهاهم التي يعيشون فيها في ربيع أبدي محبوب والتي تحييهم أرضها الطيبة الخصبة بكرم وسخاء فهم يروون حقولهم بجمع مياه الأمطار التي تنهمر فوق المنحدرات ويحيطونها بسدود صغيرة ويعترفون من تلك الطينة المترعة بواسطة آبارهم النموذجية ويحفرون لها صهاريج عظيمة تعود بالذاكرة إلى الأساطير القديمة التي يفخر بها الري في هذه البلاد التي عرفت

في العهود السابقة على التاريخ كيف تبني سد « مارب » الشهير المنقطع النظير .
ثم تتوالى النجود بعد ذلك واحدا بعد واحد في أشكال مخروطة لانهاية
لها تفصلها عن بعضها سلاسل جبال منخفضة ثم تظهر تدريجيا مباني القرى
باردة عابسة في أول الامر ثم لا تلبث أن تصير أنيقة زاهرة وتقابل على الطريق
وفوق الجبال خلائق يكثر عددها كلما تقدمنا في مسيرنا هم عرب المدينة وكلهم
يرتدون أقمصا من الصوف اللين ذى الزغب الكثير ورجال قبائل يلبسون
ملابس من جلود الماعز وبدو يتغطون بالأسمال .
وأخيرا على سفح جبل « نغم » تظهر صنعاء الزاهرة بسورها الطيني الكبير
وقصورها الشاهقة الانيقة وما كذبها الستين !!

صنعاء عرش اليمن (١)

كان على الأجنبي في العصور الماضية إذا ما وصل إلى العاصمة اليمنية أن يتجه نحو « باب الحقل » دون غيره من أبواب المدينة الثمانية المفتوحة في سور صنعاء وعندما كان يدق على هذا الباب كانت تفتح إحدى الكوات الصغيرة وكان عليه اذ ذاك أن يقدم للحراس الواقفين من ورأها عريضة يذكر فيها شيئاً عن شخصيته ويلتمس فيها الاذن بالدخول وكانت هذه العريضة تحمل الى حاكم المدينة الذي كان بعد الاطلاع عليها اما أن يسمح لهذا الأجنبي بالمشول في حضرته لبيان الأسباب التي دعت له للحضور أو يأمر باغلاق السكوة في وجهه بقسوة وخشونة وبدون شفقة ولا رحمة .

على أن اليمنيين أصبحوا مع مرور الزمن أكثر تسامحاً مع الأجانب ومع ذلك فقد كان هذا التقدم بطيئاً ففي عام ١٧٦١ وصل الى سوار صنعاء المسيو نيبوهر وزملاؤه أعضاء البعثة التي أرسلها ملك الدانمارك الى بلاد العرب واضطروا للنزول من فوق بغالهم ودخلوا مدينة العلويين راجلين ولكن هذه المعاملة القاسية المذلة قد أصبحت اليوم وقفا على الأهالي اليهود (٢) دون غيرهم وقد فتحت أبواب المدينة كلها للداخلين سوى الباب الموصل الى القلعة ولقد كان دخولنا الى المدينة من « باب اليمن » الذي هو أجمل وأهم أبواب صنعاء وهو كثير الحركة والجلبة يعج دائماً بالداخلين والخارجين وينتهي عنده طريق القوافل الكبير الذي يمتد من تعز واب ويريم وذمار ومعبر — معظم الهضاب اليمنية الغنية المزدهرة ومنه يمر اناس من كل نوع هم شعب مختلف الاشكال والالوان من بدو ومن حضر ومن عساكر وحماله ومتعطلين

(١) ترتفع صنعاء عن سطح البحر بالفين وأربعمائة متر

(٢) نلاحظ أن اليهود في اليمن يعاملون معاملة مرضية وفق الشريعة الغراء ومعلوم أن

الشريعة المحمدية قد اوصت بأهل الكتاب عامة

ويقطع «باب اليمن» المحصور بين برجين هائلين نطاق السور العظيم الذي يحيط بالمدينة وقد شيد هذين البرجين (١) السلطان صلاح الدين الأيوبي بأحجار وردية وخضراء وغبراء وزانهما بهذه الألوان الجميلة الزاهية ويقال ان «السلم الموسيقي» وجد بين بقايا «السد» الذي يكسب مملكة سبأ تلك الشهرة العظيمة والثروة الأثرية الكبيرة والذي أخذت منه هذه الأحجار . ولهذا الباب مصرعان جميلان حُفرت عليهما نقوش جميلة تأخذ بالألباب ولكن ليس في استطاعة أحد الوقوف أمامهما طويلا لتأملهما وغصهما بما يستحقان من العناية إذ جرت العادة بأن تسمر أيدي اللصوص الذين يضبطون متلبسين بالسرقة على جوانبهما

وبعد أن نتخطى عتبة هذا الباب نصبح في قلب صنعاء وعندئذ نشعر بأن كل شيء في هذه المدينة العظيمة قد صنع لادهاشنا وتحجير أفكارنا إذ خيل إلينا أننا نعيش في حلم من أحلام الطفولة المعسولة اللذيذة وتعود بنا الذاكرة الى تلك الأيام التي كنا لانزال فيها أطفالا نتخيل مدينة الخرافات والأساطير الغريبة التي كانوا يقصون علينا قصصها ويسهبون لنا في أوصافها قبل أن يعقد النوم جفوننا فمن قصور غريبة نغمة الى دور ظريفة كلعب الأطفال عملت في زخرفتها وتنميقها يد عامل صناع من صانعي الحلوى الى قباب جميلة وما دُنْ رشيقة عالية تطاول السماء الى ميادين فسيحة الأرجاء استعملت أفنية وأسواقا وخانات الى شوارع وطرق تنساب بين الأبنية كالحيات بدون اتجاه معين وبغير منطق معقول الى حوانيت ضيقة تنبعث منها راوُحُ العطور والتوابل ويتلألأ فيها بريق المعادن الثمينة والأحجار الكريمة . أليست هذه كلها مناظر ألف ليلة وليلة ؟

وكذلك الجمهور الذي يتجول في الطرقات فانه يخيل إلينا أنه خرج من صفحات قصة من القصص الغريبة الشائقة إذ يعمر فوق صهوات جياد «الجوف» العربية الأصيلة أمراء عظام وحكام كبار يرتدون الملابس الفضفاضة البيضاء وعلى اكتافهم الكوفيات والشيلان الخضراء أو الحمراء

ومن ورائهم حراسهم وخفرهم وغلمانهم . كما تمر نساء مبرقات وبدويات
سافرات عليهن جاكتات صنعت من الجلود تبدو منها صدورهن العارية
وموظفون من موظفي الدولة بعمائم البيضاء الكبيرة يصحبهم خدمهم
يحملون لهم النرجيلات اللامعة البراقة . ويمر رجال القبائل ذوو الوجوه
الزيتونية الشاحبة وهم أيضاً مسلحون بخناجر مقوسة شدت الى بطونهم في
أحزمة من الجلد ثم يهود نحاف الجسوم صفر الوجوه تبدو عليهم علامم الحزن
والغم وقد تدلت لحام الطويلة حول أصداعهم ثم تمر كذلك ارتال بطيئة
طويلة من الابل والخليل والحمر وقطعان غير منتظمة من الغنم والماعز وغير
ذلك مما لا يحصيه عد

وقد يحدث أيضاً في اثناء السفر في بلاد مدهشة مثل هذه البلاد التي
يخيل أن التاريخ فيها مرتبط تمام الارتباط بالأساطير والخرافات أن يلتقي
الإنسان بأشياء ويرى مناظر كان يعتقد أنها قد اختفت الى الأبد بفعل مرور
الزمن تجعله يشعر بأسف غريب يهون معه الاحساس بالغربة والحنين الى الوطن
ولعمري ان أهالي اليمن لعلى حق في زهوهم وافتخارهم بعاصمتهم الظرفية
التي يسمونها « عرش اليمن » . ألم يؤسسها قحطان الذي أعطى أكبر أبنائه
يعرب للشعب العربي اسمه ولغته ؟ وترجع أصول صنعاء للأساطير كما هو مقرر
لكل مدينة تفخر بأساطيرها القديمة ومدنيتها الغابرة وتاريخها الماضي المجيد
ولما ارتفعت صنعاء الى مرتبة المدن الكبيرة وأصبحت عاصمة البلاد بعد
تدمير مدينة « مارب » وتفرق شمل آل سبأ ظلت مدى الفى عام ميداناً
للحروب ومركزاً للمنازعات التي احتدمت في تلك البلاد التي لجأها ولكونها
أغنى بقاع الجزيرة العربية كلها كانت مشاراً لاطماع الطامعين واجتذبت اليها
انظار الغزاة والفاحين من كل صوب ومن كل بقعة من بقاع الارض .

ولقد كان الحصار الأخير الذي ضرب حول صنعاء في الايام الأخيرة
شيئاً قريب العهد بعد تلك الفترة التي كان فيها الامام الحالى يعمل بكل
ما استطاع من جهد لتخليص وطنه من براثن الاستعمار العثماني . ويبدو
للمناظر أن صنعاء قد احتفظت بشكلها القديم كاملا ذلك الشكل الذي كان

لها في عهد الخلفاء العباسيين عند ما كانت رائعة الجمال وكان شعراؤها يتغنون بجمال حداثتها الغناء ومياها الجارية وبما فيها من المباهج والمناظر التي تبهّر العيون وتأخذ بالآلباب وكانوا يرون أنها فريدة في محاسنها لا مثيل لها في جمالها ولا يعرفها ويقدرها الا من أتيح له دخولها والعيش في ربوعها . وفي الحق ان صنعاء في حالتها الراهنة تعتبر مدينة تعيش على هامش الزمن شيدها شعب ذكي متفنن قدير . ترى كم من السنين قد انقضت على تشييد تلك المباني الشاخنة المدهشة ؟ ترى هل بنيت بالأمس أو بنيت من ألف سنة ؟

لا علم لأحد بذلك ولا يعرف انسان شيئا عن مدارس المعمار التي ازدهرت يوما ما في العربية السعيدة والتي ابتدعت هذه الأشكال المعمارية الانيقة البارة الجمال والزخارف التي تحير العقول والتي بقيت الى اليوم دون أن يأتي الزمن عليها أو ينال من جدتها . ففي مكان هذه القصور كانت قصور وقصور كانت لها نفس الموازنة وفيها نفس النسب ونفس هذا الخليط العجيب من النوافذ والشرفات والمشربيات من مختلف الأشكال والمقاسات ونفس الزخارف التي تمت بصلة للذوق الفارسي الانيق . ترى هل من الممكن أن تكون هذه عاصمة بلاد يسكنها شعب من البدو ؟

ان من يتحدث عن البداوة في اليمن من المحتمل كثيرا أن يخلط بين العربية السعيدة والعربيات الأخرى التي أعطت مميزاتا الطبيعية لبلاد العرب هذا الاسم الممقوت الذي لا تحسد عليه أي اسم « صحراء العرب » اذ أن هنا لكل شيء من رجال أو مبان - أصول عميقة ثابتة في الأرض لأن تربتها كثيرة الأنهار واسعة الثراء .

حقيقة توجد في بلاد اليمن بعض القبائل البدوية الرحالة تعيش جهة الشرق على هوامش ذلك البحر الرمل الكبير الذي يغشى تلك الصحراء الشاسعة التي لم تكشف بعد ولم تعرف بواطنها والتي بنى فيها - على ما ترويها الأساطير القديمة - أحد ملوك اليمن الأقدمين مدينة عظيمة شاهقة البنيان

يقال لها « ارم ذات العماد » ولكن هل لبدو الشرق هؤلاء أى أثر فى حياة البلاد الاقتصادية وهل يدخلون ضمن الحساب عند ما يقدر الناس تعداد الشعب اليمنى بخمسة ملايين من الأنفس ؟

ليس الامام يحيى بحاجة لتقليد زميله ابن سعود الذى ينشئ « مستعمرات الاخوان » لتحقيق مشروعه العتيد الذى يرمى الى تثبيت الرعاة من البدو فى الأرض لأن اليمنيين قد بنوا من آلاف السنين مساكنهم وزرعوا حقولهم ولا أثر للبداوة فى اليمن لأن الجمالة ورعاة الابل أنفسهم الذين يؤمنون بضرورة التنقل من منطقة الى منطقة تتكون منهم كتلة من أناس لهم حركة لا تهدأ وعادات من الممكن اعتبارها من عادات الحضر لأن مراحلهم تنتهى دائماً فى الأوساط المسكونة فهم فى تهامة يقضون ليلهم فى داخل نطاق من القش ولكنهم فى الهضاب حيث يشتد البرد فى الليل بأوون فى أما كن أعدت لراحة القوافل هى غرف كبيرة واسعة يلحق بكل منها مخزن واسطبل يلجأ اليها الجمالة بابلهم التى يشاركونها فيها الدفء والحشرات .

وتضحى صنعاء من أحرمتها واعتبارها وجمالها وبما لها من كرامة بوصفها مدينة مقدسة بحريات كثيرة تتوفر فى أوساط يمنية أخرى فهنا نجد الحياة الاجتماعية أشد جفوة وأكثر عبوساً — على الأقل فى مظاهرها الخارجية — عنها فى أية مدينة أخرى . ترى أين ذهبت عريضة جماهير الحديد وصيحاتهم ؟ (ولكن الحديد كما هو معلوم مدينة أفسدها وجود المشركين بها .

ويوجد على مقربة من « باب اليمن » الذى سلكناه فى دخولنا الى العاصمة اليمنية شارع أطلق عليه اسم « شارع بحر رجرح » لأن دوره كان يسمع فيها فى العهد التركى غناء « العوالم » الخليع وكانت تشهد رقص « الغوازى » المتهتك وكان يغشاها دائماً جمهور كبير من حثالة الناس حيث يشربون ويلهون ويطربون ويرتكبون المحرمات والآثام على أف تلك « الرجرجة » قد سكنت اليوم لأن الشريعة التى تحرم اللهو والرقص والغناء وشرب الخمر وغير ذلك من المنكرات تنفذ بكل حزم وشدة فى المدينة التى يسكنها الامام يحيى الذى هو « أمير المؤمنين » — والتى يراقب فيها أئمة

الزيدية الأربعة مراقبة شديدة كل مظاهر الحياة الاجتماعية .

وقد اختفت بانتفاء الاستعمار التركي حتى بعض مشارب القهوة التي كان يقضى الناس فيها معظم أوقاتهم في لهو و سمر وأصبح الآن أهل صنعاء في أحسن حال اذ خلصوا أرواحهم وطهروا نفوسهم طمعا في دخول الجنة التي وعدهم بها نبيهم والتي فيها ما تشتهي به الأنفس ويلذ الأعين . ومع ذلك فان طرقات صنعاء لاتزال كثيرة الحركة والضوضاء ولا سيما الشوارع الرئيسية وتتكون صنعاء من عدة أحياء تدخل كلها ضمن دائرة كبيرة من الأسوار وتنقسم فيما بينها بأسوار أخرى حتى لتبدو كأنها خزائن مغلقة باحكام في إحدى المدرعات . وفيها « سوق العزب » وهو أشبه شيء بالحدائق العامة المسكونة وقد شيد الاتراك هذا الحى (١) في أيام حكمهم للبلاد . كما يوجد في طرف المدينة الغربى « حى اليهود » ولكن « المدينة » وهى البلدة العربية القديمة هى دائما أهم الاحياء وأكثرها سكانا وأعظمها حركة ففيها الكثير من القصور الجميلة والمساجد الشاهقة والجمامات العامة والصهاريج والسوق الفتان الذى تعرض فى دكا كينه الصغيرة التى تفتح كافواه الافران على الحارات الضيقة كل ما تنتجه أو تستورده « العربية السعيدة » من الخارج .

والى جانب « المدينة » حى آخر يقال له حى « المتوكل » يقيم فيها الملك والى الجانب الآخر توجد القلعة وهى قوية متينة البنيان لا يدرى الناظر اليها اذا كانت شيدت للدفاع عن المدينة أو لتهديدها . ولكن ترى أين يستطيع أهل صنعاء أن يجتمعوا اذا ما أرادوا التحدث أو السمر ؟

انهم يجتمعون فى « المفرج » الذى لا بد من وجوده والذى لا غنى عنه فى الدار اليمنية على أن بيوت الأعيان وعلية القوم تحتوى على « مفرجين » أحدهما فى الحديقة تظله اشجار المانجو والمان وامامه النافورة الفخمة تنثر المياه والثانى فى اعلى القصر . والمفرج بهو فسيح فتحت فيه كوات وكوابيل متعددة فى جدرانها وازينت حوائطه بزخارف بارزة من الجص وبه صفان

(١) ليس الاتراك هم الذين شيده واما عمروه منذ سكنوه

صفان من النوافذ أحدهما فوق الآخر فالعليا وهى كعيون المها مغلقة بألواح رقيقة من الرخام أو من البلور ينفذ من خلالها وقت الظهيرة نور ضعيف .
وأما أرض « المفرج » فتفرش ببسط شرقية زاهية الألوان تصف حولها وسائد وثيرة يجلس عليها رب الدار وحوله ضيوفه على الطريقة التركية وتقوم فى وسطه الترجيلة الفخمة المبرقشة ويقضى الصناعيون فى الحديث والسمير ساعات طويلة وهم يدخلون ويمضغون « القات » ويصقون فيما بين ذلك من آن لآخر فى مباحق معدنية صغيرة وهم فى أنس وبهجة والنشراح ويعلقون فى أحاديثهم على الاحداث السياسية العالمية التى يتلقون أنباءها من الجرائد العربية التى تصدر فى مصر وفلسطين والشام كما يتحدثون أحيانا فى الشعر والأدب وما الى ذلك .

وفى خارج طرقات السوق الصاخبة لا تسمع أصوات صنعاء . ولا يظهر لها أثر على أن المدينة كلها تغمرها فى الصباح الباكر قعقة بكرات الآبار لأن لكل دار يمنية حديقة ولكل حديقة بئر تروى منها وتقف على حافة كل بئر نافذة كسولة نهمة تروح وتغدو فى طريق ملتوية تطول عند ما تكون المياه بعيدة الغور وترسل من أعلى ومن أسفل القرب الجلدية الضخمة تفيض بالمياه وفى المساء يرتفع عواء الكلاب الضالة ونباحها لأنه يوجد - على مقربة من « القصر الملكى » فى شارع فسيح يكاد يكون لاتساعه وقصره ميدانا - سوق اللحم وفيه تتجمع كل كلاب المدينة التى تحي الليل بعوائها الطويل ونباحها المتواصل ولطاردة هذه الكلاب جىء بـكلاب أخرى لا تنبح ولكنها تعض اذا لم تربط بالسلاسل .

ولا يسمع للجمهور صوت الا فى أيام رمضان عند ما يعلن مدفع القلعة انتهاء الصيام وفى أثناء الحفلات الدينية والعسكرية التى تقام فى يوم الجمعة فانه ينحس ويملا الطرقات نشاطا وحركة وفى غير ذلك يسود المدينة صمت عظيم وفى خلال هذا الصمت ترى النساء يعضين فى سكوف ووقار داخل براقعهن وحجبهن كانهن الاشباح لأن البرقع اليمنى لا يشبه فى شئ ذلك البرقع الشفاف الذى كان نساء القاهرة حتى سنوات قليلة يضعنه على وجوههن وانما

هو قناع كثيف كل الكثافة لا يستطيع النظر أن ينفذ من خلاله أو يتسكهن
بما وراءه .

ويبدو أن نساء صنعاء جميلات ورشقات ويجب أن أعترف بأني لا أقول
ذلك عن علم لأنهن يمضين في الطرقات والشوارع في المدن اليمنية ولا يمكن
أن يراهن أحد بل له أن يتخيلهن اذا شاء اذ ترى الواحدة منهن كأنها كومة
صغيرة من الملابس المتعددة الألوان تمشي على قدميها بين الناس فاذا ما سألت
عن تلك الكومة المتحركة قيل لك انها امرأة ولا شيء أكثر من ذلك وكل
امرأة يمنية تحمل معها في سيرها سر ستمها وسر وجهها وسر جسمها وسر
عمرها ولا يستطيع الانسان أن يفهم كيف تتبين عيونها الطريق من خلال
هذه البراقع الكثيفة.

ومن المؤكد أن اليمنيات لسن متبرعات بهذا الزى شأنهن في ذلك شأن
البندقيات اللاتي كن في القرن السابع يلبسن الوجوه المستعارة اذ كان يحدث
أن يقابل الرجل زوجته أو ابنته أو اخته في الطريق دون أن يستطيع التعرف
عليها أو تمييزها من غيرها ويبدو أيضاً أن بقاءهن في « الحريم » لا يحزنهن
كثيراً اذ لدى كل منهن في مملكتها الصغيرة الكثير من المشاغل ويكفي أن
يعرف الانسان ما يلزمهن من الوقت ومن الصبر للتخضب بالحناء ورسم وشى
رقيق على وجوههن وأذرعهن وأيديهن وأقدامهن فضلاً من مشاغلهن المنزلية
الأخرى .

ملك العربية السعيدة

في الصباح الباكر ولما ترسل الشمس خيوطها الذهبية الأولى يدق بابي جندي من عساكر الامام دقاً متواصلاً . ترى من الطارق وماذا يريد مني في هذه الساعة المبكرة ؟

انه الامام يرسل طعام الافطار الى ضيف من ضيوفه مع جندي من جنوده ! وما يلاحظ أن « السياحة » أمر مجهول تمام الجهل في البلاد النينية (وربما يصعب على القارئ تصديق مثل هذا القول ومع ذلك فانه لا تزال توجد في العالم بلاد تخلو من هيئات تفكر في استجلاب الساعجين اليها بوعود معسولة ومغريات كاذبة لكي تجب إليهم السفر ولكي تجعل سفرهم كثير الكلفة والنفقات) وذلك لأن من يحصل من الامام يحيى على تصريح بزيارة مملكته يصبح « ضيف الامام » وفي هذا فوائد كثيرة وميزات لا يستهان بها ولو أن فيه أيضا بعض المتاعب التي ما كنا لنقيم لها وزناً لو أننا لم نكون ممن يحبون أن يضعوا أنوفهم في كل شيء وأن يفعلوا دائماً كل ما يشتهون .

وتصبح « ضيافة » الملك النيني محسوسة على الأخص في المدينة التي يقيم هو فيها لأنني طالما بقيت في صنعاء سوف يأتي عسكري يقظ طلق الحيا باسم الثغر لزيارتي في كل صباح يحمل الى مايسمونه في روسيا الشيوعية « البايوك » وهو « الجراية » عيناً وتتكون هذه الجراية من ثلاثة أرغفة من الخبز وقطعة من لحم الضأن وبضع بيضات صغيرة « وزبديّة » حمراء ملأى بالزبد المأخوذ من لبن الماعز وبعض الخضر وقليل من الزيت واللبن والبن والفاكهة يالله ! ما أكرم هذا الملك وما أعظم سخائه ! ومع ذلك فطالما شوها سمعته في الخارج وأذاعوا عنه ظملاً أنه أبخل انسان على وجه البسيطة .

وحتى في « المفارج » التي تكثر فيها الاحاديث وتبسط فيها اللسانة والتي

هى أشبه شىء بالصالونات الأوروبية لا يسمع الانسان الا أحاديث وأقاصيص غريبة لا يصدقها العقل اذ أن أعظم احتياط يدبر به الامام مالية بلاده يصبح موضوعاً للتفكه والتندر والاحاديث في ذلك مستفيضة والنوادر كثيرة . ترى هل حق ما يقال من أن موظفيه الذين يعملون في سك النقود هم من اليهود المحكوم عليهم والذين أوقف تنفيذ العقوبة فيهم ومن الممكن القصاص منهم عندما يبدو منهم أقل شىء يريب ؟

ولا تخرج معامل سك النقود في اليمن إلا العملة النحاسية (١) الصغيرة لأن الريالات الفضية الضخمة المنقوشة عليها صورة « ماريا ياتيرزا » انما تستورد من مدينة تريستا مع عملة سنة ١٧٨٠ وعندما تصبح الحاجة ماسة الى سك نقود جديدة يسلم الامام الى القائمين بأعمال دار سك النقود كمية من النحاس ويلزمهم بأن يحضروا له ما يوازى وزنها من العملة اليمنية المسماة « بالبقشة » وهى عملة قيمتها واحد على أربعين من الريال ويرقب الامام عملية الوزن باهتمام وعناية وقد سمع بعضهم وهو يعنف بعض مستخدميه لأنه اختلس بعض البقشات ويهدده بأشد أنواع العقاب اذا لم يقيم بردها .

ولست في حاجة الى تكرار القول بأن هذه كلها حكايات تافهة وبأن كل ما يذاع من السفسطات والخزعبلات عن حياة الامام يحيى بن محمد حميد الدين وعن عاداته وأحواله الخاصة وشهواته لا يمكن بحال أن ينقص من قيمة هذا الملك العظيم ومن مقدرته الفريدة ومن عبقرية ذلك الرجل الذى استرد لامامة الزيدية مركزها المفقود ولليمن استقلاله الضائع والذى تسيطر شخصيته القوية على الحياة السياسية والاجتماعية في « العربية السعيدة » .

ومن الغريب أن صحافة البلاد العربية الأخرى التى أصبحت على اتصال مستمر بالمدنية الغربية والتى تتطور فيها الافكار تطوراً سريعاً — يلذ لها أن تسخر في بعض الاحيان من امام صنعاء ولو أنها تجد أن اليمن الذى يشبه في نظرها

(١) المعروف أن دار الضرب في اليمن تخرج جميع أنواع العملة الفضية والذهبية والريالات الا أن الريالات التى تخرجها قليلة .

خرافات القرون الوسطى — جدير بكثير من الاعتبار والاحلال لأنه لا يوجد في الوقت الحاضر بلد عربي آخر يستطيع أن يفخر بأنه يتمتع بدرجة تماثل درجته في الاستقلال ولأنه وهو محتبس في عزلته التي تحمي ايمان الشعب وتصون عاداته وتقاليده الفاتنة يصر على رفض اقامة علاقات دبلوماسية أو قنصلية مع الدول الأخرى أو قبول الممثلين الأجانب وهو مع ذلك حر طليق من كل نفوذ سياسي أي كان ومن أية تبعية اقتصادية مهما كانت ضآلتها .

وعندما ولد الامام يحيى في سنة ١٨٦٩ كانت الامامة الزيدية تمتاز محنة من اعظم المحن وتربها اسود ايامها لان الاستعمار التركي في اليمن كان قد انقضى ومضت عليه ٢٣٩ سنة بعد الهزيمة المنكرة التي ازلها « المؤيد » بعساكر السلطان على ان الدولة اليمنية لم تهتم في تلك الفترة البعيدة المدى بتقوية مركزها أو تحسين أحوالها لانه قد تولى الحكم فيها بعد الأئمة الاوائل الذين كانوا رجالا عقلاء بواسل — أئمة آخرون كانوا عجزة ضعاف النفوس و اشرارا قساة القلوب ولذلك سرعان ما ضعفت إسلطتهم وسقطت هيبتهم وهبت في البلاد الثورات المختلفة التي ازعجتها إما ازعاج حتى ان مدينة صنعاء نفسها قد انقسمت شيعا وأحزابا أخذت تقاتل بعضها بعضا بعنف وفي غير هوادة وكان بعضها يستنجد في بعض الاحيان على بعضهما الآخر برجال القبائل الذين عاثوا في الارض فسادا وهدامادعا أحد الأئمة الى التنازل عن سلطته وعن الامامة ، كما انه قد انتخب للامامة بعض المحتالين والمشعوذين في بعض الاقاليم التي رفضت الخضوع لاوامر الحكومة المركزية .

بعد ذلك تولى عرش اليمن محمد بن يحيى الذي تربى ونشأ في الديار المصرية وكان كثير الاعجاب بالأتراك ولذلك طلب اليهم العودة الى اليمن ولكن عندما دخل الالف والخمسة رجل الدين استحضرهم — في صنعاء هاج الشعب اليمني واشتد غضبه فارتكب الكثير من اعمال العنف وسالت الدماء انهارا وغزا العاصمة وهدمها على من فيها وقتل الامام شر قتله وبذلك سقطت البلاد في القوضى وعم الفساد وعند ذلك قام شيخ من افراد اسرة « الحيمي » ونصب نفسه سيذا على صنعاء كما قام غيره من الزعماء والرؤساء بانشاء حكومات

مستقلة في مختلف الاقاليم واشتد الصراع بين رجال القبائل وذاع السلب والنهب وانتشرت المذابح في كل مكان وفي عام ١٨٧١ نزلت حملة تركية جديدة في نهامة وسارت نحو العاصمة وعندئذ قام وفد من اعيان البلاد ووجوهها لاستقبالها في « مناخة » واعلن لها استسلام صنعاء وكافة بلاد الهضبة اليمينية ولذلك انسحب الرؤساء الزيدون الى الاقاليم الشمالية حيث احتفظوا لانفسهم بمظهر بسيط من مظاهر السلطة على الاهالى وكانت سلطة دينية بحته وبذلك استقر الاستعمار التركي في اليمن مرة ثانية .

في ذلك الوقت كان الامام يحيى يبلغ من العمر سنتين اثنتين وكان يعيش في حريم أبيه محمد حميد الدين وعند وصول الترك حمل محمد أولاده ونساءه وثروته على ظهور الابل وانتقل بهم الى « قفلة عذر » وكان ينتسب الى أسرة شريفة من الأسر العريقة التي تفخر بانتسابها الى فاطمة الزهراء ابنة الرسول والامام على بن أبى طالب .

وما وصل يحيى الصغير الى السن التى تسمح له بترك ابهاء « الحريم » حتى تولى كبار العلماء ومشاهير القضاة والفقهاء أمر تعليمه وثقيقفه فعلمه القضاة الشريعة الإسلامية ولقنه العلماء العلوم والآداب وكان أبوه يشرف بنفسه على تعليمه كما كان يعلمه الفنون الحربية فسرعان ما ظهرت مواهبه العظيمة وأعجب الجميع بذكائه وعبقريته .

وقد جرت عادة الزيود حتى في عهد خضوع اليمن للاستعمار التركى على أن ينتخبوا ملوكهم فالامام هو قبل كل شىء الرئيس الدينى الأعلى وهو أمير المؤمنين وبين القباية العديدة لقب « المتوكل على الله » ، وفي سنة ١٨٩٠ انتخب الزيود في مدينة « صعده » على حدود العسير امامهم الجديد في شخص محمد حميد الدين وأصبح ابنه الأكبر « يحيى » هو سيف الاسلام وعندئذ بدأت الحركة التى كانت ترمى الى استعادة سلطة الملوك الزيديين وتحرير البلاد من النير الاجنبى فجمع محمد بعض الفرق العسكرية واخترق بهم حدود المراكز التركية في حجة وعمران كما حاصر مدينة صنعاء . ولقد قامت على اثر تلك الحركة حركات أخرى مماثلة في أواخر القرن الماضى وقد اتبعت الفرص في

تلك الحركات للشباب «يحيى» لظهار مواهبه العظيمة كقائد باسل وزعيم عظيم حتى انه عندما توفي والده في عام ١٩٠٤ اتجهت أنظار الزيود نحوه لتوليته الحكم في البلاد بعد أبيه اذ كانت تتوافر فيه كافة المزايا وكل ما تتطلبه امامة الزيديين من الشروط .

والامامة — كما قلت فيما سبق — لا تورث وكان اعتلاء العرش في أغلب الأحيان برضاء أفراد الأسرة المالكة ولو أنه لا يوجد نظام ملكي خاص بهذا الشأن وعندما يخلو العرش يجتمع رؤساء الزيود ويأخذون في انتخاب الامام والشروط الواجب توافرها في الامام أربعة عشر أهمها أن يكون شريفاً منجدرأ من نسل فاطمة وعلى أن يكون رجلاً تقياً صادقاً في قوله عادلاً مستقيماً ذكياً ذا نفس أبيية له نفوذ وسيطرة على الشعب وأن يكون قد أثبت أنه محارب كفء باسل وحاكم حازم يقظ .

ولكن هذه الانتخابات كمثل انتخابات أخرى في كل زمان ومكان تجري غالباً في أحوال شاذة مضطربة وفي تاريخ اليمن حادث فريد وهو أن أحد المطالبين بالعرش وهو المهدي عباس (١) الذي ظهر لمجلس الرؤساء المجتمعين لانتخاب الامام انه لا تتوافر فيه الا سبعة شروط من الاربعة عشر الواجب توافرها في الامام قال للمجتمعين أما عن الشروط الاخرى فان في استطاعتي أن أقدم لكم ما يغني عنها وهو هذا وأخرج سيفه من غمده . . . وعندئذ تم انتخابه اماماً ولا يرى القانون الزيدي بأساً من الحصول على الامامة « بحمد السيف » .

ارتقى يحيى عرش اليمن بدون جلبة ولاضوضاء وبموافقة اجماعية وكان أول عمل قام به هو أن شهر الحرب على الاتراك وهاجمهم بعساكره وأخذ في الزحف حتى بلغ أسوار مدينة صنعاء ولما علم السلطان بذلك جرد بسرعة جيشاً كبيراً وأرسله لمحاربتة وتأديبه ولكن العساكر الزيديين هاجموا في أثناء سيره في الجبال وأسروا فرقة التموين بأكملها وهكذا أخليت صنعاء ودخلها «يحيى» بمجنوده دخول الفاتحين ولكنه طرد منها مرة أخرى على

(١) المفهوم ان هذا حدث لاحد الائمة الذي خلفوا هذا الامام .

يد حملة تركية ثانية لم تلبث أن اضطرت لاخلاء المدينة بعد قليل من الزمن بسبب نقص الاقوات فيها .

وقد نجح الامام يحيى فى هذه الفرصة فى الاستيلاء على كافة أنحاء الهضبة المتوسطة حتى مدينة «إب» ولكن كانت قد وصلت حملة تركية جديدة اشتبكت معها على مقربة من «متناخ» فى معركة عنيفة دامت ثلاثة أيام وثلاث ليال وأخيراً انتصرت جيوش السلطان التى كانت مسلحة تسليحاً قوياً ومدرّبة أحسن تدريب - على الجيوش اليمنية التى كانت تتألف من رجال قبائل ومن بدو حفاة الاقدام كانوا لا يزالون يحتفظون بعاداتهم القديمة وهى أن يغرسوا حول عمامتهم فتائل بنادقهم القديمة. وكذلك انسحب الامام يحيى الى قفلة عذر على ان هذه الهزيمة لم تقت فى عضده ولم توهم عزيمته اذ أنه أخذ يحارب الغزاة بصبر وعناد وأوقع بهم خسائر فادحة وعلى الأخص عندما وجهوا حملات تأديبية على قبائل الشمال وحاول الترك أن يقيموا بدلاً منه اماماً زيدياً آخر ولكنهم لم ينجحوا وأخيراً اضطّر الباب العالى الى طلب الصلح مع الامام وامضى معه اتفاقاً فى سنة ١٩١٢ تركت للادارة التركية بمقتضاه مدينة صنعاء ومعظم الاراضى الساحلية . أما المناطق الاخرى أى الاقاليم الزيدية فانها تركت تحت ادارة الامام وسلطته الدينية والادارية وعندئذ استبدل القانون التركى الذى كان معمولاً به فى البلاد بالشريعة الاسلامية ووكّل بادارة القضاء موظفون كان يعينهم الامام .

أما الامام يحيى فانه بعد أن ضمن اعانة سنوية لشخصه ولكبار موظفيه من خزانة الدولة العثمانية اتخذ لنفسه مقراً فى خمير^(١) حيث أخذ يباشر سلطته وينشر نفوذه ويبسط فيه فى الاراضى التى خصصت له بمقتضى الاتفاق وفى العاصمة نفسها بينما كان عيونه وجواسيسه يتوغلون فى محميات عدن وفى حضر موت ومن ذلك الوقت أصبح الامام يحيى هو الملك الحقيقى فى البلاد . وفى اثناء الحرب العظمى الاولى رفض الامام يحيى بشم وباء كل مخالفة

(١) خمير مدينة فى شمال صنعاء على نحو ستين كيلومتراً منها .

اقترحها عليه الانجليز ورغما من انه حارب الاتراك لضمان استقلال بلاده
الا انه آثر أن تقطع رقبته ورقاب اولاده على أن يحالف الكفار . وعندما
وضعت تلك الحرب اوزارها دخل صنعاء دون أن يجد أية مشقة أو أية
مقاومة من احد .

وهناك من يقولون في الوقت الحاضر بأن الامام يحيى لا يفكر الا في جمع
الثروة وهذا ليس من الحق في شيء لان ارادته القوية وبصيرته النافذة تحيط
بكل شيء في اليمن فهو يهتم بكل انسان وبكل شيء ويقوم باهم اعمال الدولة
وبما ينشأ من خلاف بين القبائل حول ملكية بعير او رى حقل من
حقول الاذرة .

ويتحدث الكثيرون عن كنوز الامام وما فيها من ذهب وفضة كما لو كانوا
يتحدثون عن كنوز سليمان ويقولون انها مدفونة في خزائن مصرية مسحورة
تحت الارض ويسهر على حراستها حراس مخلصون ورجال اقوياء اشداء وانها
مخبوءة في بطون الجبال في كهوف مغلقة بجلاميد من الصخور الهائلة ويفيض
خيال اليمنيين في هذه الموضوعات بالكثير من الاحاديث والافصاف ، وبما
لاشك فيه أن الامام يحيى يمتلك ثروة لا بأس بها ولكن ترى لمن يوفر هذه
الثروة ؟ هل يوفرها لنفسه أو لبلاده ؟

ان اليمن لم يحصل على كل الاراضى التى كانت له في ايام عزه ومجده عندما
كانت تمتد حدوده الى العسير شمالا والى عدن وخضرموت فى الجنوب ولكن
ترى اى المشروعات يجول بخاطر الامام يحيى ؟

ليس فى استطاعة مخلوق ان يقول شيئا فى ذلك لان كل شيء يدعو للظن
بانه يهتم فى الوقت الحاضر بان يضمن لليمن الهدوء والاستقرار مدة طويلة
ولكن العرب يشبهون الانهار التى تجرى فى بلادهم والتى تبقى اجوافها جافة
عدة سنين ثم تمتلئ على حين غفلة بالمياه القوية الجارفة التى تأخذ بحراها بعنف
وشدة وتكتسح كل ما فى طريقها !

جمعة رمضان

« شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن
هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن
شهد منكم الشهر فليصمه » .

لا يسع الانسان الا أن يعجب بالحكمة البالغة التي وضعها الشريعة
الاسلامية اذ فرضت على المسلمين أصح العادات في الحياة التي هم في أشد الحاجة
اليها فان الصلاة التي فرضت عليهم اقامتها خمس مرات في اليوم ليست هي محض
عبادة بل هي أيضاً تمرين جسدي عظيم الفائدة هو أشبه شيء بالتمرينات
الرياضية السويدية وهي وقاية وجنة لشعب يميل بطبيعته الى الركود وعدم
الحركة بسبب حرارة البلاد التي يعيش فيها فضلاً عن أن فرائض الوضوء قبل
الصلاة والتطهر واختيار الأطعمة وقواعد النكاح وتحريم المشروبات الروحية
كلها أشياء جديرة بالاعجاب والاحترام ولوانه من الصعب اقناع الغربي
بسهولة بفكرة صوم رمضان المفروض على المسلمين والذي يقرب مدى شهر
كامل، نظام الحياة الاسلامية رأساً على عقب ويقلل الى أقصى الحدود الحركة
والنشاط في العمل اذ يصوم المسلمون من انبثاق الفجر حتى غروب الشمس
ويمتنعون عن المأكول والمشرب وفيهم من المتمسكين من يتأخرون في الافطار
بعض الوقت عن الغروب للتمكين .

على أنهم منذ أن يرخي الليل سدوله حتى اللحظة التي يتبين فيها الخيط
الابيض من الخيط الاسود يباح لهم كل شيء مما امتنع عليهم بالنهار وقد
يعجب الانسان لأول وهلة لمثل هذا الصيام وقد لا يستطيع ان يفهم الفوائد
التي قد تعود على المسلم منه وقد اعتاد اليمنيون أن يناموا بعد صلاة الفجر
وأن لا يستيقظوا من نومهم الا في ساعات القيلولة وأما في أثناء الليل
فيأكلون كما يشتهون ويدخنون التبغ في الترجيلات ويمضغون أوراق «القات»

وفي كل يوم من أيام شهر رمضان تعلن طلقات مدافع «القصر» للشعب اليمنى بداية الصوم ونهايته وحتى في قلب الليل في السحر تطلق هذه المدافع لتدعو المسلمين لتناول الوجبة الأخيرة «السحور» حتى لا يفاجئهم نور الفجر وفي فمهم طعام أو شراب . وان تدخل «المدفعية» في أهم طقوس رمضان ليفهمنا الطبيعة الحتمية التي يفرضها على اليمنيين ذلك النظام الذي يوجب قيام الليل وصيام النهار الذي توقف أو تكاد توقف فيه كل الأشغال العامة ويفرض فيه الركود الرسمي على كل الأعمال .

* * *

اما يوم الجمعة الأخيرة من رمضان فيحتفل به احتفالا عظيما منقطع النظير ففي ذلك اليوم يخرج الامام في موكب نفخ الى المسجد الكبير لاداء الصلاة وعندئذ تغلق أبواب المدينة كلها وقد جرت العادة بذلك من عهد بعيد اذ حدث مرة أن انتهز بعض رجال القبائل الشائرة فرصة هذه الصلاة الجامعة ودخلوا صنعاء وانسل نقر منهم الى المسجد وقتلوا الامام في اثناء الصلاة . والمسجد الكبير الذي يؤدي فيه الامام هذه الصلاة في العاصمة اليمانية هو مسجد قديم العهد يقال انه شيد قبل ميلاد النبي ليكون كنيسة للمسيحيين (١) وربما كانت هذه الكنيسة قد خصصت للاستشف المبعوث من قبل بطريرك الاسكندرية لنشر تعاليم الانجيل في ربوع العربية السعيدة . ولهذا المسجد صحن كبير مرصوف بالحجارة السوداء ومحوط بصفوف متناسقة من الاعمدة العالية ذات الزخارف الانيقة يجتمع فيه السكافة والخاصة على قدم المساواة للصلاة .

والسادة في اليمن جبهة كبيرة قوية وكلهم من نسل الرسول وييدهم كل السلطات ويلبسون فوق رءوسهم عمامم بيضاء كبيرة مستديرة الشكل . اما الامام والحجالة فهم وحدهم الذين لهم الحق في ان يتركوا طرفاً من الشال

(١) ليس هذا بصحيح وانما أسس جامع صنعاء هذا في عهد معاذ بن جبل العنبي الشهير ثم وسع في أيام الوليد ومن بعده اما الكنيسة التي اشار اليها فاعلمها كنيسة القباس وهي لا تزال معروفة في صنعاء بارها في الجانب الجنوبي الشرق من المدينة

الكبير الذى يلقون به رؤوسهم يتبدل خلف ظهورهم .
وعندما تخرج العربى التى يركبها المليك والتى يحجرها جوادان مطهمان من
جياذ « الجوف » العربىة الاصيلة — من فناء « المقام » للتوجه الى المسجد
الجامع تسمع اصوات حادة صاخبة من البورى تجيب عليها اصوات اخرى
تمثلها من رجال الحرس الذين يقفون فوق ابراج سور المدينة ويحف بالعربىة
كبار الموظفين وذوو المقامات وعلية القوم على جياذهم وعدد كبير من الضباط
والعساكر والسياس ويقودها حوذيان يلبس كل منهما عمامة حمراء كما يقف
رجلان مسلحان من رجال الحرس فوق المقعد الخلفى منها وفى داخلها
يجلس اثنان من الامراء يرتديان افخم الملابس فى مواجهة الامام الذى يتصدر
شخصه الكريم فى وسط المقعد .

ولباس الامام الرسمى فيه بهجة وزينة تبهر الانظار فالذهب يتوقد فوق
زرقه قيصه وعلى اكمامه الفضفاضة وفوق عمامته الخضراء وحزامه الزبرجدى
ويزدهر فوق الاسلاك الرفيعة التى توشى بها ازراراه ويسطع تحت الاحجار
الكريمة التى تمتلىء بها قبضة خنجره . ويتقدم الموكب رجال « العكفه »
حرس الملك المخلصون وهم بدو نحاف الابدان اقوياء ، كأن جسومهم قد
قدت من الجامود لهم ضفائر طويلة تتدلى من رؤوسهم ويرتدون مآزر
(فوط) بنفسجية اللون مصبوغة بالنيلة التى يؤثر لونها الازرق على الجلد
ويبقى من الامراض وهم يمسكون بعضهم بايدى البعض ويسرون بخطى راقصة
سريعة وينشدون اناشيدهم المشجعة اللطيفة فى مدح سيدهم الامام
والاشادة بذكوره .

وتزدحم الجماهير حول هؤلاء وهؤلاء وينسكاثر عندها حتى تصير كأنها
البحر الزاخر وهى خليط من كل شكل ومن كل لون ومن كل صنف من
شيب وشبان وبنين وبنات واطفال تملأ أنفاسهم الجو حرارة وتنطلق من
افواههم صيحات عالية هنا وهناك .

وقبيل خروج الملك تبتدو الجهات المحيطة بالمقام فى منظر فتان يخلب الالباب
فالموظفون والكتاب العموميون يهرولون زرافات ووحدانا ويتجمعون

حيث يجلسون القرفصاء فوق حائط السور ويجتمع حولهم كل من له حاجة وكل صاحب مظلمة يريد عرضها على الامام فتكتب العرائض والاسترحامات على قصاصات من الورق ويرفع بعض المتظلمين الصوت عاليا بظلاماتهم وشكاواهم وهم يوجهون نظراتهم حولهم ذات اليمين وذات الشمال كما لو كانوا يريدون التأكيد من عطف الشعب على ظلامتهم قبل ان ينالوا العدالة من المليك ويصيح أحد الجنود قائلا : « لقد مضت ثلاثة اشهر لم يدفع لى مرتبى فهل هناك ظلم أشد من هذا ؟ نرجو يا مولانا ان تعمل على محو هذا العار » . وفي مكان آخر يقف جمهور من رجال القبائل كلهم يرتدون ملابس من جلود الاغنام وقد جاءوا من بلادهم البعيدة يلتمسون تدخل المليك لانصافهم من عامل قريتهم الذى يسرف في استعمال سلطته وفي مكان آخر تقف امرأة محجبة تهمس في اذن الكاتب بشكواها السرية الى غير ذلك مما لا يحصىه عد .

بعد ذلك يخرج الموكب الملكى من « المقام » فيختلط المتظلمون بعضهم ببعض وهم يصيحون ويصرخون في وجوه عساكر الحرس والفرسان ولما يقترب هؤلاء منهم يقدفون باوراقهم التى تتضمن شكاياتهم والتى يلتقطها الامام بيديه بحذر غريب وهى متناثرة في الهواء .

ويعود الموكب الى التألف ثانية بعد حفلة الجامع للعودة الى « المقام » حيث يجرى الاستعراض العسكرى العتيد تحت جدرانها وتدخل العربية الملكية بين جناحين من الجماهير حتى تقف في وسط فناءه وينزل منها « الامام » بمساعدة الامراء ويجتمع حوله « السادة » الذى ينحنون امامه لتقبيل ركبتيه ويقف الى جانب « السادة » انجال الامام الصغار واولاد الامراء وكتلة كبيرة من الصبية الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثانية عشر والذين بمجرد ان يتعد الامام يسرعون الى تسلق عربته ويقذفون بالمناكب الجلوس في اوسع مكان فيها وهو الذى يجلس فيه الخوذيان .

ولقد أتيج لى أن أحضر حفلة العرض العسكرى الذى يجرى آخر يوم جمعة من رمضان وان اشهد هذا العرض من مقصف صغير في دار الحكومة لا يبعد كثيرا عن المقصف الذى يجلس فيه الامام على مرأى من شعبه فوق مقعد

اخضر اللون قليل الارتفاع نقشت على جانبيه المصنوعين من خشب التناك آيات من القرآن الكريم وأول شيء رأيناه في هذا العرض هو فرقة الموسيقى العسكرية ومما لاحظناه ان كل الآلات التي في أيدي رجالها ان هي الا طبول وابواق ولا شيء غير ذلك . ويدير هذه الفرقة شيخ تركي متقدم في السن تدين له اليمن بنشيدها الوطني المفرح . وعندما تصطف فرقة الموسيقى امام شرفة الامام على الجانب الآخر من الطريق تتقدم فرقة من الجند تحمل العلم اليمني الاحمر اللون الذي رسم عليه سيف وخمس نجوم بيضاء ثم تمر فرقة بعد اخرى في صفوف متتالية ينتظم في كل صف منها اربعة من الجنود ويسير في المقدمة المشاة حاملين بنادقهم على اكتافهم ومن خلفهم فرقة مدافع المترايوزات وفي اثرها المدفعية المكونة من بطارية ميدان ومن قسم من بطارية جبلية تجرها البغال ويسبق هؤلاء الجنود ضباطهم ومعظمهم من الضباط او صف الضباط الاتراك وعندما كانت فرق الجيش تمر امام الامام كانت تؤدي له التحية على الطريقة الاوربية .

ومن الجراة والمبالغة الجزم بأن الجيش اليمني يملك آلات حربية فنية ذات قيمة تذكر وقد حدث في وقت ما أن نشرت الصحافة الاوربية أخباراً جمعتها من مصادر عربية عن استعدادات حربية هائلة في اليمن ولكن ليس هناك ما يبرر ما قيل من هذا القبيل فان اقتراع الجنود يسير في اليمن على النظام المعتاد (١) كما أن المصنع الذي أعدته الحكومة لصناعة خرطوش البنادق! التي هي الصناعة الحربية الوحيدة لم يزد في أعماله البسيطة البسيطة وكل ماشوهد في الأوقات الأخيرة من الآلات الحربية الواردة الى اليمن والتي أفرغت من السفن في ثغر الحديدة لا يزيد على العشرين أو الثلاثين دبابة من المحتمل كثيراً أن يهمل استعمالها في أقرب وقت نظراً لحالات الطرق اليمنية السيئة ولقلة مهارة السائقين الوطنيين وليس لدينا الا القليل اذا ما أردنا

(١) لاحظ هنا أن الحكومة اليمنية زادت جيشها بعد هذا التاريخ وجعلت التجنيد اجبارياً فانشأت جيش الدفاع الوطني

التحدث عن الفرق الميكانية في الجيش اليمنى .

أما الطيران فقد أصبح اليوم لا وجود له في اليمن ومن عدة سنوات أرسل الامام يحيى إلى ايطاليا بعض الشبان اليمنيين لدراسة فن الطيران في معاهدها كما وصلت طيارتان إلى صنعاء ولسكن منذ ان سقطت إحدى الطيارات الألمانية على إحدى الهضبات في ضواحي العاصمة في اثناء حفلة طيران استعراضية لم يشأ الامام ان يسمع كلمة واحدة من أحد عن الطيران في بلاده واستخدم طياريه الذين تعلموا هذا الفن في ايطاليا في العمل في ادارة البريد وفي بعض مصالح الحكومة الاخرى .

وليس الجيش اليمنى كثير العدد اذ يتكون من عشر فرق تضم كل منها ألفاً من الجنود وهؤلاء هم الذين يتكون منهم الجيش النظامى على أنه في وقت الحاجة يستدعى إلى حمل السلاح جيش احتياطى آخر يطلق عليه اسم « الجيش البرانى » وهو الجيش الغير النظامى المكون من رجال القبائل اذ ان كل قبيلة ملزمة بتقديم عدد من الجنود يتناسب مع عدد رجالها ونظام التجنيد في اليمن يقوم على التطوع في صفوف الجيش على انه كما هو معلوم — تطوع لمدة الحياة واذا اراد جندى ترك الجيش وجب عليه ان يدفع للحكومة مبلغاً من المال يتراوح بين خمسين وثمانين من الريالات او ان يأتى في مكانه بمن يخلفه اما المرتب الذى يتقاضاه الجندى فهو ست ريالات وخمسة وعشرون كيلو جراماً من الاذرة في الشهر الواحد مضافاً اليه اربعة ارغفة في كل يوم وهذا المرتب ليس بالكثير ولكنه على كل حال لا بأس به لان العمال المدنيين لا يكتسبون اكثر منه واما الموظفون فانهم يتقاضون من الدولة رواتب صغيرة لانهم يستطيعون تدبير حياتهم بآية طريقة !!

ويتسلم الجندى اليمنى من حكومته البندقية والحزام ولا شئ غير ذلك اما الملابس فيجب أن يحصل عليها من راتبه الضئيل وعلى ما يريد ويشتهى ولا يمتاز الجنود اليمنيون عن (١) الأهالى المدنيين بشئ الا بالبندقية والحزام

(١) قد جعل للجنود ملابس خاصه موحده .

على أن الجندي لكي تكون له هذه الصفة يجب على الأقل أن تكون له سترة يلبسها وعلى أن لا تكون سترة كيفما اتفق بل لابد أن تكون من تلك السترات ذات المنظر الخلاب والتي تكون لها أزرار ذهبية (١)

أما الموسيقى العسكرية في هذه المدينة التي تتمتع فيها كل موسيقى أخرى فإنها تبدو أنها لا تتعب ولا تمل وهي تعزف باستمرار تحت إدارة معلم متقدم في السن يبقى دائماً فوق بغلته نظراً لضعفه وعدم قدرته على المسير أو الوقوف على قدميه وهذه الموسيقى ماهي إلا مارشات لا يعلم إلا الله من أين أخذت ولا كيف أمكن توقيعهما وعزفها بهذه الآلات الموسيقية المحدودة التي في متناول أيدي الفرقة اليمنية وقد كنا نسمع بين آن وآخر نبرات النشيد اليمني السهلة المرححة التي تشبه إحدى الاغاني الشعبية .

وتكرّما « لضيف الامام » ولادخال السرور على نفسه هاهي ذى الفرقة اليمنية الموسيقية تعزف بعض الاناشيد الايطالية بينما تمر آخر فرقة من فرق الجيش أمامنا واذ ذاك يكون قد اجتمع حول مقصف الامام جمع كبير من الاعيان والوزراء والموظفين ويزدحم كل هؤلاء وهؤلاء في السلامك الذي تجرى فيه الاحتفالات .

(١) كان بعض ما قبل قبل توحيد ملابس الجنود .

جلاسة طريفة مع الامام

من الاشياء التي ينصح بها للاوربي عند وصوله الى صنعاء أن يدع قبعته جانباً وأن يحصل لنفسه على طربوش من صوف الغنم الاسود لان المسلمين في هذه البلاد لا يضايقهم شيء اكثر من منظر غطاء للرأس لا يسمح لجبينهم بلمس الارض وينم على الكافر الذي لا يؤدي الصلاة الاسلامية ولا يقيم لها وزناً .

وقد احتل الطربوش المكان الاول في البلاد الاسلامية وتفوق على العمام في العهد العثماني ولا يزال يحتفظ بمركزه للآن ولو أنه سقط من شاحق مجده في تركيا وكان له اسوأ مصير في ايران . ولكن لم ياترى تلك الاهمية العظمى التي تعطى للقبعة في العالم العصري لا بصفتها ظاهرة من ظواهر الاناقة والجمال أو نوعاً من الازياء بل بصفتها رمزا سياسيا اودينيا فان الثورة البلشفية وجدت رمزها عندما ترك الرفيق لينين قبعته البورجوازية في عربة القطار المصفح الذي نقله الى روسيا ووضع فوق رأسه قلنسوة بسيطة من تلك القلنسوات التي يلبسها العمال ؟

لهذا حصلت على طربوش جميل لبسته فوق رأسي عندما ذهبت قبيل الساعة العاشرة مساء الى « القصر » الذي يسكنه الامام — بصحبة اثنين من الجنود كانوا ينيران بمصباحيهما الطريق امامي ولم اكن بالطبع انا الذي تخيرت هذه الساعة المتأخرة لزيارة عظيمة مثل هذه الزيارة بل ان الوزير راغب بك الذي فضلا عن قيامه باعباء وزارة الخارجية اليمنية يقوم بلباقة ومهارة بمهمة رئيس البروتوكول — كان قد ارسل لي بطاقة فيها رسالة قصيرة هذا نصها : « بسبب حلول شهر رمضان سيستقبلكم جلالة الامام الليلة في قصره في الساعة العاشرة »

وربما كان اختيار هذه الساعة المتأخرة هو السبب في الابقاء على آلتى الفوتوغرافية التى لها قيمة عظيمة فى هذا البلد الذى لم يعرف عن مناظره فى الخارج الا الشئ القليل النادر وأحسب لو أنى ذهبت للتشرف بالمشول بين يدى المليك فى اية ساعة من ساعات النهار وحملت معى آلتى الفوتوغرافية لالتقط بها بعض الصور فى الوقت المناسب لكان الامام لحظ ذلك ولبادرنى بقوله : ما أجل هذه الآلة ! ارنى اياها » وماهى الا ان يتناولها بيده حتى يلقى بها الى الارض فتصبح هشما . (١) وقد حدث هذا لبعض الزوار لان العقيدة الاسلامية تحرم تصوير الاشكال الآدمية على ان كثيرين من المسلمين اصبحوا لا يقيمون لذلك وزنا ويبدو السرور على وجوههم عندما يقفون امام احدى العدسات ولكن هذا ليس رأى الجميع فانه حتى فى الشوارع والطرق يجب على الفوتوغرافى ان يستعمل الحكمة والحذر وان يتذرع بالصبر والحزم لانه قد يلتقى باحد المتعصبين المنتظمين ويصطدم معه وقد جرؤ مرة احدى الروسيين على الطواف فى أحد ميادين صنعاء وهو يدير يد احدى آلات التصوير السينمائية فلم يلبث ان هاجمته الجماهير واعتدت عليه اعتداء شنيعا وما كان اعظم سرور اليمينيين لو ان هذه الآلة التقطت صورة لمليكنهم المحبوب بدلا من تلك الصورة التى عملت فى غيابه بالريشة من الذاكرة والتى جاءت بعيدة عن شبهه كل البعد ولعمري انها لجريئة لا تغفر لان الامام يحى هو أحد الرجال الافذاذ العظيمى الاهمية الموجودين فى قيد الحياة اذ انه رئيس دولة مستقلة يعيش محتسبا بين حدود مملكته كما انه الرئيس الاعلى لاحدى الطوائف الدينية الكبيرة واحدا لكتاتوريين القلائل الموجودين على ظهر البسيطة فى هذه الايام لان كل السلطات فى بلاده متركزة بين يديه وما وزراؤه الا موظفون حاذقون يخلصون له كل الاخلاص ولا يجزعون حتى

(١) المعلوم أن جلالة الامام يحى لا يرى باسا من أخذ الصور الفوتوغرافية ولكنه لا يسمح لاحد بان يأخذ لجلالته صورة وقد يكون المؤلف قد أستقى هذه المعلومات التى لا اصل لها من مصادر غير موثوق بها .

فى أبسط الامور واقبلها اهمية على ان يتحملوا اية تبعه او أن يبرموا أمراً قبل ان يتسلموا او امره وتعليماته فيه .

والامام يحى فى نظر رعاياه شخصية مقدسة فهم يأتون اليه فى بعض الاحيان من اماكن بعيدة فى قوافل تسير اياما وليال وهم من البدو المرضى للتبرك به ولالتماس الشفاء من أمراضهم منه ولكى يعيد يده الكريمة ويعسج بها على رؤوسهم واكتافهم كما كان يحدث فى فرنسا وانجلترا من قرون بعيدة عندما كان يقال : اذا لمسك الملك شفاك الله ! ويكتب له الزيدون من اقاصى الهند يطلبون اليه أن ينادى بنفسه خليفة للمسلمين وقد كثرت احاديث الناس فى اوربا عن « يحيى بن محمد » كما لو كانوا يتحدثون عن شخصية غامضة محوطة بالاسرار وهذا خطأ فاحش ولكنه ليس خطأنا نحن الاوربيين بل هو خطؤه هو لا يد ل احد غيره فيه . حقيقة ان أئمة اليمن السابقين كانوا يعيشون فى برج من العاج بعيدين عن انظار الشعب وفى عزلة لا يمكن التغلغل فيها أو النفاذ منها كانت تجعلهم لغزا من الالغاز ولقد كانت هذه العزلة التى كان من شأنها ارتفاع مقامهم وعلو مركزهم وزيادة هيبتهم فى نظر الجماهير مطابقة للتقاليد القديمة الموروثة التى يرجع اصلها الى ملوك سبأ الذين تقول الاساطير عنهم انهم ما كانوا يستطيعون الخروج من مساكنهم الفخمة الانيقة مخافة ان ترجمهم الجماهير بالحجارة !!

وقد بقى والد الامام يحيى متمسكا بهذه العادة محترما لهذه التقاليد الغربية التى جرى عليها ملوك اليمن ولكن الامام يحيى على عكس ابيه وأجداده عمل دائما على أن يكون على صلة دائمة بشعبه ويمكن القول بأنه يعيش على مشهد من الشعب فاذا ما قرر يوماً بيع احدى جواربه مثلاً أو اذا بدأت احدى ركبتيه تشكو من النقرس فلا تمضى نصف ساعة حتى يكون قد عرف ذلك كل أهالى صنعاء .

ويجلس الامام يحيى فى فصل الصيف فى أحد افنية « المقام » تحت ظل شجرة كبيرة يحيط به رجال دولته وجنوده ويعقد جلسة يقصدها البدو

من الأقاليم الشرقية البعيدة لعرض شكواهم ومظلماتهم وعندما يصلون الى أبواب قصره ينحرون شاة أو عنزا وهكذا يجددون تلك الطقوس اليمنية القديمة على أن هذه « الضحية » أصبحت لازورة لها لانه من الممكن أن يدخل أى انسان متى شاء ولا تثريب عليه والامام يستمع الى الجميع ويحيب على كل متحدث باجابات حكيمة متزنة تدل على راحة العقل ويتقبلها الجميع بنفس مطمئنة راضية والامام رجل مثقف واسع الاطلاع ومكتبته الفسيحة غنية بما حوته من كتب قديمة قيمة ويقال انه يهتم كثيرا بعلم الفلك ويميل الى قرض الشعر .

أما مسكنه فهو قصر عظيم جدير بملك عظيم مثله ويطلق عليه اسم « المقام » ولا ينقص « المقام » شىء من الزخرف أو الأبهة والوجاهة اللاتقة بمقر ملك شرقى غنى وهو يتجلى فى وسط سور كبير تسكاد تكون من جدرانها مجموعة تذكارية وسط أحياء المدينة اذ كان الأئمة السابقون قد أقاموا فى مكانه حصناً منيعاً ولكن رجال القبائل أتت عليه وهدمته وبنى الأتراك على أطلاله أحد المستشفيات ولما عاد الامام يحيى الى عاصمة بلاده ودخلها دخول الفاتحين أمر بهدم البناء الجدد لى يقيم مكانه « دار السعادة » وهو قصر واسع الرحاب فسيح الجنبات حسن التنسيق مزخرف بالزخارف والتخاريم البيضاء الناصعة وأقام الى جانب قصره آخر أعظم منه له شرفات واسعة ومشربيات أنيقة تحيط بنوافذه أطلق عليه اسم « دار الشكر » توجد فيه اليوم مساكن المليك الخاصة كما بنى فيه أيضاً مسجداً جميلاً به سبع قباب بيضاء ومجلى بأعمدة رشيقة عليها نقوش وزخارف بديعة جمعت كلها من أطلال مدينة « مارب » كما شيد أيضاً برجا كبيراً خصص لضيافة الأمراء والزوار الذين يمرون بالعاصمة وعدة ثكنات للحرس اليمنى وبعض المكاتب

« والمقام » أشبه شىء بقصر « الكرملين » الروسى اذ توجد فيه قصور ومعابد وأبنية من شتى الأشكال ولشتى المخصصات وبه حديقة واسعة فيحاء تنبت فيها كل النباتات التى اشتهرت بها العربية السعيدة من لوز وقات وجوز

ويرتقال ونحيل وأعنان وزهور ورياحين كما يوجد فيه أيضاً « المنرج »
الملكي الصيفي الحسن التنسيق .

ويرى الانسان في زاوية من زوايا الحديقة — حيث يقوم فوق الجدران
برج هائل بالغ الضخامة متناهي القصر — سارية محطة « الراديو » التي هي
الشيء الوحيد الذي يجعل اليمين على اتصال بالعالم الخارجي ويرفع رجال القبائل
الذين يعمرون أمامها أعينهم نحوها دون أن يفهموا شيئاً عنها ودون أن يسألوا
عن سبب وجودها ولكنهم يقفون في المساء مبهورين للتطلع لمصاييح باب
« المقام » التي توقد من تلقاء نفسها ويظنون انه ربما كان ذلك من سحر
الجن الذين يخضعون لأمر « المتوكل على الله » . والقصر الملكي هو المبنى
اليميني الوحيد الذي يضاء بالنور الكهربائي وقد كان فيه في عهد من العهود
جهاز تليفوني لا أعرف على وجه التحديد من الذي أهدها لجلالة الامام
ولكن يحيى بن محمد الذي يحب دائماً أن ينظر في عيني محدثه ليستشف ما وراءها
سرعان ماضاق ذرعاً بتلك اللعبة السخيفة الطائشة ! .

ولا يحتقر الامام مبتكرات المدنية الآلية ولو أنه لا يرى فيها فائدة مادية
ولما احتلت جنوده في أواخر أيام الحرب العالمية الأخيرة مدينة تعز كانت هناك
بين غنائم الحرب أربع سيارات فخمة وقد تقرر اهداء واحدة منها للامام
يحيى وهكذا ظهرت السيارة الاولى في طرقات صنعاء وبعد أن فحصها الامام
بدهشة كبيرة وعناية عظيمة أمر بإيداعها في أحد المخازن وقد حدث أن نزل
الامام في أحد الأيام على رغبات راغب بك وزير خارجيته وقرر استعمال هذه
السيارة للذهاب بها إلى المسجد ولما تقدمت السيارة الجميلة بسائقها نحو
باب « المقام » سرعان ما تجمعت حولها الجماهير ولكن عندما ظهر المليك
وهم بركوبها خرج « السيد قاسم » من وسط الجماهير واتجه نحوها وفي اثره
جماعة من المتعصبين وبهايمته الطويلة الممتلئة وغيونه التي ينبعث النور والشرر
منها قام شيخ المسجد ورئيس سدنته ووجه كلامه الى الامام بصوت أجش
قائلاً : أنجرو يا امام الزيديين على ركوب هذه الآلة الجهنمية الممقوتة ؟
ولما كان الامام يحيى لا يرغب في إيجاد خلاف ذي صبغة دينية فانه أجاب

الرجل بقوله ! أنا ؟ حتى ولا افكر في ذلك ثم وضع سيفه الذهبي على رقبته وهو ممسك به بيديه كالميزان على الطريقة البدوية وتوجه على قدميه نحو المسجد (١)

اما نوافذ الدور الأول المزخرفة بالزجاج الملون وبألواح الرخام الرقيقة فقد كانت كلها مضاءة وكانت تكسب « المقام » منظر مسرح من مسارح « الاوبريت » ولقد دخلنا الى البهو مخترقين الفناء الذي كان يستريح فيه رجال الحرس وكان هناك أيضا عساكر آخرون حفاة الأقدام مسلحون يجلسون القرفصاء حول نرجيلة فخمة يدخنون منها كل بدوره فاذا ما انتهى الواحد منهم أمسك الآخر بمسماها ووضعها في فمه بطريقة منتظمة بحيث كان الدخان المتصاعد منها يجاجل المياه التي في قاعها .

ولقد كان السلم مزدحماً بكثير من الناس كما كانت عتبة البهو مملوءة بمجموعة طريفة من الأحذية المختلفة الألوان والأشكال والمقاسات وضعت في غير نظام فكان فيها أحذية من الصنف الأوروبي وأحذية هندية وأخرى مغربية وأخفاف وطنية وصنادل مستطيلة الشكل وأحذية لها رقبة من المطاط وشبابشب مخططة وملونة باللونين الأحمر والأصفر وأحذية مقلدة من التيل الأبيض من التي غزا بها اليابانيون موانئ الشرق وأسواقه ومما لاشك فيه أن حدائي كان يجب أن يأخذ مكانه إلى جانب هذه المجموعة الفريدة التي يندر أن يجتمع مثلها في صعيد واحد قبل أن أتقدم وأطأ بقدمي سجاجيد الديوان الفخمة ويجب أن أقول أن ذلك كان معقولا وكان أمرا لا بد منه بعد أن قطعت كل هذه المسافة في طرق صناعاء وفي الليل (٢) .

من هذا الوقت أصبحت على علم تام بتقاليد البلاط اليمني وآدابه فكان

(١) هذه الحكاية غير معروفة في اليمن ولا أعلم مصدرها .

(٢) يلاحظ على هذا أن جلالة الامام لم يستقبل المؤلف استقبالا رسميا خاصا وإنما كان استقبالا عاديا بخلاف ما حدث مع الاجانب فكان يستقبلهم في صالون خاص كما يستقبل بقبة الملوك الآخرين زائريهم .

يجب أن أقاوم كل دافع يدفعني الى رفع الطربوش عن رأسي وبمجرد أن دخلت البهو الملكي كان على أن أدور بعيني لكي أبحث عن الامام ثم انقض على ركبتيه لتقبيلهما ولكن هذه أشياء من السهل التحدث عنها لا القيام بها ولا أدري كيف نجحت أخيرا في الهرولة حافي القدمين على البلاط الغير المستوى المغطى بسجاجيد فضمة وثيرة ولا كيف انحنيت حتى كدت أبلغ الارض بدون أن يسقط طربوشي عن رأسي أو بدون ان افقد توازني وأنا اندفع نحو الملك الامر الذي كان — اذا حدث — يعتبر امرا غير لائق وغباوة وبلاهة مابعدهما.

بعد ذلك بحثت عن مكان خال أجاس فيه فوق الوسائد المصفوفة بطول جدران البهو الفسيح وأنا أحاذر أن لا أدير كتفي للمليك ثم جلست مربع الساقين اللتين سرعان مابدأتا تشعران بالكل لأنهما لم تتعودا مثل هذه الجلسة وكان « الديوان » زاخرا بالامراء والوزراء وكبار رجال الدولة ولكني لم أكن أهتم بوجودهم لاهم ولا الكتاب الذين كانوا يتجمعرون أمام الباب تدفعهم الرغبة وحب الاستطلاع لمشاهدة الاستقبال الذي يستقبل به أمير المؤمنين أحد الأجانب الأوروبيين . ولم يكن في البهو — في نظري — سوى الامام على أن حضور المترجم كان يعتبر ذون شك حادثا سعيدا ولكني ما كنت أعاق عليه أهمية كبرى اذ أتى عندما كنت أتكلم بلغتي كنت أوجه حديثي للمليك الذي كان يستمع لي باسما ويبدى برأسه علامات الموافقة في انتظار فهم كلامي من المترجم وهذا ما كان يجب على أن أعمله أنا أيضا وأنا أصغى لأقواله .

كيف حالك ؟ .. كان هذا السؤال يصل الى غير مسموع كأنه آت من بعيد ولم يكن منتظرا في حفلة استقبال مثل هذه الحفلة ولكنه كان مسألة اجراء آت ولا شيء غير ذلك . ولما علم الامام أن صحتي جيدة وأن رحلتي كانت سعيدة موفقة ظهرت على وجهه علامات البشر وعلت ثغره ابتسامة رقيقة .

« انى أشكر جلالكم لتفضلكم بالسماح لى بالمجىء لمشاهدة بلادكم الجميلة » .

« وانى لسعيد وجد مسرور بأن أراك هنا بيننا فلقد تحدثت الجرائد كثيرا عن اليمين عن غير علم وأسرفت وفى أثناء الخلاف الذى كان قائما بينها وبين الحجاز كتبت أشياء ما أنزل الله بها من سلطان وبلغ بها الأمر أن ذكرت أن الامام قد توفى وأن الأمير أحمد لاذ بالفرار من الميدان واسوف تكتب أنت ما استراه عيناك »

وكان الامام يحيى بن محمد يجلس فوق وسائد حريرية لينة وثيرة ويرتدى ملابس بيضاء فضفاضة وكان وجهه الاسمر تحيط به لحية البيضاء المستديرة أما عيناه السوداوان فكان فيهما قلق كان يبدو من خلال نظاراته الشاحبة الزرقاء على أنه كان منشرح الصدر وهذا ما كان يؤثر فى الجو المحيط به ولم تمنعه ضخامة جسمه من أن يبدو حسن الصحة رغم سنيه الخمسة والستين ومع هذا فانه كثيرا ما يذاع عنه فى اليمن وفى الخارج وما يقال عنه من أنه رجل مريض وقد حدث أن انتهى به الأمراض مرة الى الاعتقاد بأنه مريض وذلك عندما وصل الى صنعاء طبيب سلافي ودعاه الامام للكشف عليه اذ كان يشعر وقتئذ بشيء من التوعك وانحراف المزاج وقد أحزن هذا « الكشف » الطبيب السلافي حزنا عميقا فقد اكتشف علامات مخيفة لأمراض بعضها أشد هولا من البعض وقد تأثر الامام يحيى كثيرا عند سماعه هذا الكلام حتى أنه ترائى فوق وسائده مستسلما وطالبا معونة الله لجرى الناس اليه وهرعوا من كل صوب ولقوه فى أحد الأغطية ورفعوه من مكانه اما الخدم ورجال الخاصة والكتاب فقد تألف منهم نوع من المواقب الحزينة اتجه نحو مساكنه الخاصة وقد سرى النبأ سريان الكهرباء فى الحرم وأثار البكاء والنحيب والصراخ والعيويل من النساء والأطفال وعند ذلك ضاق الامام ذرعا بما سمع وعيل صبره فوقف على قدميه صارخا لاعنا وانهال على

الموجودين ضربا وشتما وأخذ يوزع لكأته شرقا وغربا على من كانوا يحملونه
وطرد الطبيب وكل من كانوا حوله شر طرده . (١)

أخذت في الاشادة له بالاستعراض العسكري العظيم الذي جرى في يوم
جمعة رمضان اليتيمة وأظهرت له اعجابي بالجنود الكثيرة العدد التي اشتركت
فيه والجاهير الحاشدة التي شاهدهة فأجابني بقوله : انك تقول ذلك لأنك
رجل لطيف مهذب ولا شك عندي في أنك تقول ذلك من باب التلطف
والجمالة لأنني شاهدت بعيني رأسي في أحد الأفلام الجنود والجاهير التي
لا يحصى لها عدد والتي لا يمكن أن تقارن بها جنودنا وجاهيرنا والتي تجتمع
عادة في حضرة الزعماء الأوروبيين (وفي الحق أنه يوجد في «المقام» جهاز سينمائي
صغير وأغلب الظن أن السيد قاسم لم يره ولا علم له به !)

ثم تكلم الامام وشكر للدول التي تبدي عطفها على اليمن وقال ان علاقات
اليمن مع حيرانه أصبحت طيبة للغاية وان الأمطار كانت غزيرة في هذا العام
مما يقوى الأمل في محصول وفير ان شاء الله . ثم سألتني قائلا : هل كان الجو
شديد الحرارة في تهامة عند قدومكم وهل يشتد البرد في اوربا في هذا الفصل
كما سألتني عما اذا كانت سيارتنا قد سارت بسهولة في طرقات اليمن وعندما
كنت اتحدث اليه عن الطريق المنشأ بين عدن وتعز واقول له ان الجزء الذي
النشأ اليمنيون افضل من الجزء الواقع في اراضى البلاد الواقعة تحت الحماية
البريطانية يبدو عليه الزهو والسرور الذي يعبر عنه بهزة تبدوها طيات قميصه
وتنحسر عنها احدى قدميه وعند ذلك أحاول بدوري أن أمد قليلا ساقى
اللتين كانتا تسببان لي ألما لا يمكن احتماله .

ويطول بيننا الحديث ويتبسط ويتشعب في مختلف النواحي حتى نلأس
موضوعات ما كانت لتخطر لي ببال وكل ذلك والامام يصغى لأقوالى ولأوصافى
للشمس التي تظهر في منتصف الليل في الصيف في البلاد الأوربية الشمالية كما

(١) هذه القصة لا تعرف واذا كان قد حدث شيء من ذلك فهو مبالغ فيه ويستبعد العقل والعادة

أظهر له دهشتي عندما يؤكدلى أن العرافين اليمنيين يستطيعون قراءة المستقبل على عظام اكتاف الكبوش !

وكانت أمام الملك صينية نحاسية واطئة منقوشة بنقوش عربية ظريفة وضعت عليها ثلاثة أكوام من الريالات الفضية وهرم صغير من الصلب كأنه يقف حارسا لخاتمة الطريف الذى يبصم به كما كانت هناك بعض الاوراق وساعة مكتب (منبه)

وعندما يضع الامام يده على الاوراق الموجودة أمامه قيد البحث افهم أن جاسة الامام الطريفة قد انتهت واستأذن فى الانصراف

الايمن الى اليمين

واليمين في الوقت الحاضر — كما قال لي الامام — على وفاق مع جيرانه كلهم ويتكون حرس الامام على الاخص من رجال الجيش والجمارك اليقطين . وعساكر الملك اذا مادخلوا ثكناتهم الهادئة يزينون عمامتهم بباقات صغيرة من الريحان والياسمين . وفي استطاعة بلاد العرب أن تعيش أياما قليلة في سلام وطمانينة لان هذه الجزيرة المترامية الاطراف والتي تبلغ مساحتها ثلثي مساحة أوروبا والتي تتكون من مناطق نضرة وأراض عظيمة الخصب ومن صحراوات شاسعة وارض قاحلة جرداء تسكنها أجناس مختلفة كانت دائما تنهكها الخصومات والمنازعات الداخلية والحروب الاهلية وقد استطاع النبي محمد أن يفتحها كلها ويوحد بينها ، وأن يفرض على سكانها دينه الجديد ولكن سرعان ما تولدت بعده الاختلافات وعادت الخصومات سيرتها الاولى واشتملت نيران الحروب الاهلية .

ولقد تكلم أحدهم — ولا أعرف على وجه التحديد من هو — عن حدود اليمن فقال ان هذه الحدود ليست معينة أو محددة تحديداً كاملاً الا من جهة البحر لان اليمن الذي هو أخصب جزء في البلاد العربية تربة والذي هو اغناها وانضرها واكثرها سكانا واحسنها مناخا كان في كل العصور مطمع الانظار ومحل الغزوات فدخله الرومان والسوريون والاحباش كما غزاه الفرس والمصريون وكما فتحه الاتراك مرتين ومع ذلك فلم يعمر به طويلا اي مستعمر من هؤلاء المستعمرين وعندما استطاع اليمن أن يبقى مستقلاً كانت حدوده تتغير دائماً فكان ملوكه في بعض الاحيان لا يسيطرون الا على صنعاء وما حولها من الهضاب والمرتفعات وأحياناً كانوا يسيطرون سلطانهم على مساحات شاسعة من الاراضي كانت تشمل نجدا والحجاز والعسير

وعدن وحضرموت وأراضى عمان وهى مناطق تتصل بالبحر الأحمر والمحيط الهندي وخليج فارس . « واليمن » معناه « بلاد اليمن » على حد قول بعضهم لانه اذا اتجه الانسان من الكعبة الشريفة التى تقوم فى وسط مدينة مكة نحو الشرق كانت العربية السعيدة إلى يمينه . وبعد أن لحق النبى محمد بالرفيق الاعلى سرعان ما تمسك اليمنيون من سكان الجبال بالمذهب الشيعى الزيدى نسبة الى زبد حفيد على بن ابى طالب وخطوا على علمهم كلمة فاصلة حاسمة هى « الايمان الى اليمن » .

اما حدود اليمن الطبيعية فى الوقت الحاضر فهى دائماً محل نزاع و شار مناقشة وجدال لان رجال السياسة قد فقدوا كثيراً من مرونتهم ومع ذلك فان « معاهدة الطائف » التى عقدت بين الحجاز واليمن بعد النزاع الذى قام بينهما فى سنة ١٩٣٢ قد خصصت صفحات متعددة بينت بكل دقة الحدود التى تفصل بين اراضى الامام يحيى واملاك الملك ابن السعود وكذلك قد تم بعض التحسن من جهة الجنوب لان الحالة المتعبة التى دامت من نهاية الحرب العظمى الاولى والتى طالما اثارت حوادث دامية قد انتهت بتوقيع معاهدة الصداقة الانجليزية اليمنية ولكن الحدود الشرقية (١) من ناحية بحر الرمال الذى لا آخر له ولا نهاية قد بقيت متأرجحة رجرجة وغير ثابتة ولا مستقرة كأنها ظل أحد الكئيبان الرملية فهى تتغير حسب مزاج قبائل الصحراء والنصف الهمجية على ان هذه القبائل اذا تركت وشأنها لا تقوم بخلق المتاعب ولا تؤذى احداً واغلب الظن ان تلك القبائل اذا لم تكن موجودة فى مناطقها لما تغيرت حال اليمن عما هى عليه فى كثير ولا قليل ولانهم اذا قاموا بدفع العشور وهم على ما هم عليه من الفقر المدقع لما زادت ميزانية الامام الا قليلا ومن المعلوم ان مالية الامام يحيى ناجحة مزدهرة فهو يحصل الضرائب بمنتهى الشدة وفى غير هوادة كما انه ينفق بمنتهى اليقظة والحزم ولا يستطيع انسان

(١) المفهوم من معاهدة صنعاء بين بريطانيا العظمى والمملكة اليمنية ان رضى الطرفان بالوضع الحاضر مؤقثاً وفى خلال مدة المعاهدة يحلان المنازعات الخاصة بالحدود جميعها

ان يحصل على بيان رسمي للميزانية اليمنية التي علمها عند الامام وحده ومع ذلك فيمكن تقدير ايرادات الحكومة بنحو الثمانية الملايين من الريالات وهذا ليس بالشئ الكثير ولكن يقابل ذلك ان المنصرف لايزيد على الاربعة الملايين من الريالات وفي الحق ان الحكومة اليمنية لا تقدم على المغامرات في الشؤون السياسية وتدفع لموظفيها رواتب ضئيلة تافهة تصل في حالات شاذة الى اربعين ريالاً في الشهر وهي تدبر المصروفات الحربية بخزم وبمجنهى القصد .

وكذلك الحال في التجارة الخارجية فانها قليلة نادرة ولو انها ناشطة فان أسعار البن والجلود قد تدهورت ويلاقي تصدير الاذرة والسمسم والقات والزبيب بعض المصاعب ولكن يقابل ذلك ايضا ان الواردات الى اليمن نادرة لا تكاد تذكر وهي تنحصر في قليل من غاز الاضاءة والدخان والكبريت والسكر وبعض المنسوجات الرخيصة من المصنوعات اليابانية او الروسية وفضلا عن ذلك فان الامام قد اضاف اخيراً الى قائمة البضائع الغير المرغوب فيها كالتبيد والمشروبات الروحية والآلات الموسيقية ولعب الاطفال والالعب النارية — اشياء اخرى من التي من الممكن ان تحمل محلها المنتجات الوطنية . وقد فرض الدين ضريبة العشور على المسلمين حتى انهم اذا لم تكن هناك سلطة شرعية لجباية هذه الضريبة منهم شعروا بالخرج امام ضمائرهم ويقول اليمنيون ان الصلاة توصلهم إلى منتصف الطريق الى بيت الله والصوم يقردهم الى بابه واما العشور فانها رسم الدخول فيه ! .

ولا تقعد السلطة المنوط بها تحصيل هذه الضريبة عن المطالبة بها ولا تهمل في اداء واجباتها وقد حدث ان وجد اليمنيون انفسهم عدة مرات في تاريخهم امام سلطتين كانت كل منهما تدعى لنفسها حق جباية هذه الضريبة وليست لدى الزيديين اية شبهة في هذا الامر فالامام هو حاكمهم المطلق وولى الامر فيهم الذي اختاروه هم انفسهم بمطلق الحرية وهو رئيسهم المدني والديني والرجل المقدس « المتوكل على الله » وهم مقتنعون كل الاقتناع بأنه لا يفرض عليهم قانونا من عندياته ولكنه يعمل جهده على ان يحترم رعاياه القانون

السماء الذى فرضه عليهم دينهم ونزل به كتابهم المقدس .
 ويتمتع الملك الى جانب صفته المدنية بسلطة عليا دينية يستمد منها قوة
 لا يستهان بها فالزيديون يعظمونه ويوقرونه ويطيعونه فى كل ما يأمرهم به
 ويدفعون له الضرائب والعشور عن طيب خاطر ويحاربون فى صفوف جيشه
 عند اول اشارة تصدر منه لانه بهذا امرهم الله الذى اوصاهم بالطاعة ولى
 الامر فيهم حتى يضمنوا لانفسهم جنة الخلد وما فيها من نعيم مقيم كما يقدره
 ويحترمه بقية رعاياه من اليمانيين الغير الزيديين من شوافع واسماعيلية وغيرهم
 وبدء الشرق .

لقد رآى النبی محمد بثاقب فكره وبواسع حكمته ان يعين الخليفة الذى
 يليه ومع انه كان قد اصطفى من سنين خلت كوزير له ابن عمه الشاب على الذى
 كان اول من آمن به واتبع دينه وتزوج من ابنته فاطمة الا انه قد حدث انه
 بسبب الدسائس التى حيكت له نزع الصولجان من يده وعين ابو بكر خليفة
 للمسلمين كما عين بعده عمر الذى اتخذ لنفسه لقب « أمير المؤمنين » وهو
 اللقب الذى يخلعه الامام يحيى على نفسه وفى عهد هذا الخليفة انتشر الاسلام
 فى بلاد كثيرة واتسعت فتوحات المسلمين حتى انهم فتحوا ستة وثلاثين الف
 مدينة وحصنا وشيدوا الفا واربعمئة مسجد .

وعندما توفى عمر نجحت عائشة (١) فى الكيد لعل واستطاعت حرمانه
 من الخلافة ورشحت للخلافة بدلا منه عثمان بن عفان ولكن عندما مات
 هذا استطاع على ذلك الرجل الحكيم الصالح الكريم والفارس المقدم والبطل
 المغوار - الاستيلاء على عرش النبی ومع هذا فان عائشة لم تلق سلاحها بل
 ظلت تناوئه وتناصبه العداء حينما من الدهر وأثارت ضده الفتن والاضطرابات
 كما شجعت بعض المطالبين بالخلافة على الخروج عليه والقيام ضده على أنه لم
 يلبث أن قتل بيد أحد الخوارج أمام مسجد الكوفة وقد انقسم المسلمون
 بعد وفاته الى معسكرين عظيمين سنيين وشيعيين فكان السنيون يعترفون

(١) المعروف فى التاريخ أنه لم يكن لعائشة رضى الله عنها أى دخل فى هذا الموضوع

بشرعية خلافة الخلفاء الثلاثة الأول أبو بكر وعمر وعثمان وأما الشيعة فانهم كانوا لا يقررون ذلك ويقولون بانحصار الخلافة في علي وأولاده وذريته .

وقد أصبح سكان الهضاب اليمينية الذين كان النبي قد أرسل لهم عليا ليهديهم للإسلام من الشيعة وألقوا المذهب الزيدي نسبة إلى زيد أحد أحفاد علي واستمروا يختارون ملوكهم من بين أحفاد الرسول بينما بقي معظم سكان تهامة من أهل السنة واعتبروا الزيديين من الخوارج ولذلك استمر النزاع قائما بينهم ولم تخمد نار الحروب بين الفريقين وعندما قام «لودفيك دي فارتيا» برحلته الجريئة إلى اليمن كان الخلاف بالغا أشده بين الفريقين .

ولا يعجب القارئ إذا علم بأنني أخذت معي كدليل لي في سفري إلى بلاد الامام يحيى كتابا وضع من نحو أربعمائة سنة وذلك لأن الكتب التي وضعت عن هذه البلاد قليلة ونادرة بسبب العزلة التي يعيش فيها هذا البلد أما «الدليل» الذي وضعه ذلك السائح البولوني (نسبة إلى مدينة بولونية الإيطالية) فهو كتاب شائق لا يذو عظيم الأهمية وفضلا عن ذلك فإنه ربما لا يخطر ببال أحد أن كثيرا مما رواه فيه هذا الرحالة من الأوصاف والحكايات لا تزال إلى اليوم قيمته .

ولقد كان «دي فارتيا» هو أول أوروبي نزح إلى بلاد اليمن وأول من نشر الأخبار عن مدنها وسكانها ومزروعاتها ومناخها فقد أبحر من مدينة البندقية في عام ١٥٠٠ م . أو بعد ذلك بقليل مدفوعا برغبته الشديدة في «تغيير مناظر بلاده ومحل إقامته ولكي يرى بلادا جديدة ويتعلم أشياء جديدة» . وكتابه هذا كتاب رجل مكتشف جليل القدر جرى مقدام قوى القلب دقيق الملاحظة نافذ البصيرة ومحدث حلو الحديث ذي تأثير عظيم قد قام برحلته هذه في أوقات كان لا يقوم فيها بالرحلات البعيدة إلا التجار والغزاة الفاتحون وكان سفره أولا إلى مدينة دمشق حيث تعلم شيئا من اللغة العربية ثم انخرط في سلك فرقة عسكرية من فرق المماليك كانت مكلفة بحراسة قافلة الحججاج المسافرة إلى مكة والتي تتألف من ستين الف رجل وخمسة وثلاثين ألف جمل وقد زار الأماكن المقدسة الإسلامية ومن مكة سافر إلى

جدة حيث البحر على ظهر سفينة من سفن الحجاج العائدين إلى بلاد العجم
ووصل إلى عدن في خريف عام ١٥٠٣ م.

ولقد احتل الانجليز عدن بعد هذا التاريخ بثلاثمائة وستة وثلاثين سنة
ولكن كانت تبعد على هذه المدينة بعد هذه الفترة الطويلة المدى مظاهر القوة
وعلائم المنعة ويقول عنها «دى قارتيا» انها «امنع مدينة رأيتها في حياتي
على وجه البسيطة» كما يقول عنها انها «عاصمة العربية السعيدة»
وفي ذلك الوقت كان اثنان من الملوك يتنازعا على عرش اليمن احدهما
الملك ظافر سلطان عدن واثانيهما احمد بن ناصر امام صنعاء وقد قبض على
رحالتنا «دى قارتيا» في اليوم التالي لوصوله بتهمة التجسس للبرتغاليين
الذين كانوا قد بدءوا رحلاتهم الجريئة الى شواطئ الهند وبلاد العرب وقد
بقي في سجنه مدة طويلة حتى نجا من الاسر بأعجوبة. وبعد شهرين قضاهما
في السجن كبلوا قدميه بالحديد واركبوه على ظهر احد الجمال ونقلوه
في مدى ثمانية ايام الى الروضة حيث كان السلطان يتأهب للقيام
بحملة حربية على صنعاء وقد حكى (دى قارتيا) للسلطان انه صار مملوكا في
دمشق وانه اسلم وحسن اسلامه وأدى فريضة الحج وعند ذلك أمره السلطان
بالنطق بالشهادتين ولكن دى قارتيا المسكين كان منهوك القوى ولم يستطع
نظراً لضعف جسمه وفقدان ذاكرته النطق بهما بطلاقة ولذلك اعاده السلطان الى
السجن بعد أن شدد عليه الحراسة. وبعد يومين تحرك جيش السلطان كله مرة واحدة
نحو صنعاء وكان هذا الجيش يبلغ عدده ثمانين الفا من الجنود بينهم ثلاثة آلاف
من العبيد الاحباش الذين تدربوا على حمل السلاح وخمسة آلاف رجل ولما
يئس (دى قارتيا) من الخلاص من الاسر فكر في حيلة ظن أن فيها نجاته
اذ تصنع الجنون وعندئذ سمح له بالخروج في الطريق مع بقاء الاغلال والقيود
في يديه وقدميه (ولا يزال المجانين يسرون بهذه الحالة الى اليوم في كثير من
المدن اليمنية) وقام بكثير من المحاولات لالقات نظر احدى زوجات السلطان
اليه ولما أن رآته السلطانة وهو يعرى جسده في أثناء تصنعه الجنون
أخذتها الشفقة عليه لانها لم تر في حياتها جسداً أشد بياضاً من جسده وأمرت

بنقله الى احدى غرف قصرها الارضية لتشديد الحراسة عليه وكانت تقوم بزيارته كل ليلة مع وصيفتها وتحمل اليه معها اطيب المأكولات وأفخر العطور وفي ذلك يقول « دى فارتيا » : « بدأت السلطنة تتنازل بالنزول الى الغرفة الارضية التي كنت فيها كل ليلة في نحو الساعة الثالثة أو الرابعة وكانت تحمل لي معها دائما مأكولات طيبة ولما كانت تدخل حيث كنت مسجوناً كانت تناديني بقولها : تعال هنا يالوديثيك ثم تسألني قائلة : اتشعربالجوع ؟ وكنت من شدة جوعي اقول لها نعم وكنت اتجبه نحوها بقميصي ولكنها كانت تقول لي : « لا . ليس هكذا . بل اخلع عنك قميصك » وكنت اخلع قميصي وأعري الجزء الأعلى من جسدي لارضائها وكانت السلطنة المسكينة تبقى امامي ساعتين وهي تتأمل جسدي وكنت انا ايضا اتأملها كما لو كانت احدى عرائس البحر وهي تبكي وتنتحب وتتضرع الى الله قائلة : ياالهي ! سبحانك اللهم وبحمدك جلت قدرتك انك خلقت هذا الرجل ابيض كأنه قطعة من الشمع اما زوجي فقد خلقتة أسود فارزقني مولودا ابيض اللون كهذا الرجل . وكانت تكرر كلمات كثيرة بهذا المعنى ثم تأخذ في البكاء ثم تنصرف . وقد وعدتني بأنها بمجرد وصول السلطان سوف تسعى لديه لفك عقالي واخلاء سبيلي »

وفعلا نجحت السلطنة في جعله يستعيد حريته وقد تمكن « دى فارتيا » من العودة الى عدن حيث استطاع الاتفاق مع قبطان احدى السفن التي كانت على وشك الرحيل الى بلاد فارس والهند على السفر معه ولكن لما كان لا يزال باقيا على سفر السفينة شهرا كاملا فانه قرر زيارة بلاد العربية السعيدة وقام برحلته اليها على ظهر جواد وكانت اول مازاره هي امارة لحج التي شاهد فيها كميات لا يحصى لها عدد من النخيل والتي رأى فيها الكثير من اللحم والقمح « كما زار « المقرانة » حيث « يحوز سلطانها من الذهب ما يزيد على حمل مائة بعير » كما زار ايضا « يريم » (التي يسكنها شعب من الزنوج السود والتي يوجد فيها نوع من الاغنام المخاصي السمينة الكبيرة الذبول التي يزن ذيل الواحد منها نحو الاربعة والاربعين رطلا وليست لهذه الاغنام قرون وهي بسبب ضخامتها لا تقوى على الجرى وفيها ايضا نوع من العنب الابيض

الحلى من البذر لم اذق فى حياتى كلها عنباً احلى او اشهى منه » وقد وصل «دى فارتيا» بعد ذلك الى صنعاء حيث ادهشه اكثر من كل شى أمران أحدهما سورها الكبير المتماهى الضخامة الذى كان يتسع لسير ثمانية من الخيول الى جانب بعضها وثانيهما عادة احد ابناء السلطان الغربية الذى (كان يشهد هياجه وغضبه فيعض الناس ويأكل من لحومهم حتى يشبع ثم يتركهم) . وقد شاهد فى مدينة (تعز) مسجداً بنى على طراز كنيسة القديسة (ماريا روتوندا) فى مدينه روما كما لاحظ وجود أسواق عظيمة فى مدينة (زبيد) تباع فيها بضائع واشياء متنوعة تشحن الى البلاد الاخرى .

وقد زار (دى فارتيا) ايضا فى هذه الرحلة مدينة (آنس) التى تقوم بين جبلين يتوسطهما واد بارع الجمال وارف الظلال وفيها نافورة جميلة وقد نصب فى ذلك الوادى سوق كان يقصده الناس من هذا الجبل ومن ذاك وقليل هم التجار الذى كانوا لا يتشاجرون مع بعضهم والسبب فى ذلك هو ان التجار الذين يسكنون الجبل الغربى كانوا يطلبون الى سكان الجبل القبلى ان يؤمنوا مثلهم بمحمد وبخلفائه الاربعة بينما كان الآخرون لا يريدون الايمان الا بمحمد وعلى ويقولون بان الخلفاء الآخرين ابا بكر وعمر وعثمان غير شرعيين .

ويبلغ عدد الشوافع القاطنين فى تهامة نحو ثلث سكان الشعب اليمنى ويعتبر القرآن كتاب الشريعة المقدسة سواء عند سكان الهضبة اليمنية أو سكان السهول الساحلية ولكن هذا لم يمنع من اختلاف وجهات النظر فى شرعية حكومة صنعاء . والزيود الجبليون هم الاقوى جانباً فتحوا تهامة وغزوها بمجد السيف ولكنهم مقتنعون تمام الاقتناع بانهم لم يستطيعوا غزو نفوس سكانها . وقد تركز الدفاع عن اليمن وأعد كله فوق المرتفعات وذلك اولاً لاسباب حربية فنية وثانياً (١) لان الزيديين قليلو الثقة باخلاص سكان السهول الشوافع

(١) فى كلام المؤلف هنا خلط للحقائق فاليمن وحدة لا تتجزأ شعور كل أهلها واحد والثقة متبادلة بينهم .

اذ أن هؤلاء عندما زحفت جيوش ابن السعود في اثناء الخلاف الاخير بين الحجاز واليمن لم يترددوا في ترك تهامة في ايدي الغزاة الفاتحين بل واستقبلوا السعوديين الذين جاءوا لمحاربة الامام يحيى بكل ترحاب ولم يدهش الزيدون لذلك لانهم كانوا يعرفون في الشوافع عدم الاخلاص لهم على انه عندما أخلى الجيش الوهابي الاراضى المحتلة بعد عقد الصلح لم يعمد الزيدون الى الانتقام من مواطنيهم بسبب مسلكتهم بل انهم على العكس من ذلك اتفقوا مع مواطنيهم الاسماعيليين الذين هم قليلو العدد في البلاد اذ لا يزيدون على الاثنى عشر الفا ولكنهم يسكنون مرتفعات «حراز» في الشمال الشرقى الى الحديدة ويستطيعون بحكم موقع بلادهم الدفاع عن الهضاب والمرتفعات الجبلية .

والاسماعيليون يلفتون انظار الباحثين في الشئون الاسلامية من عدة قرون لان لهم طقوسا دينية يجب ان يكون لدى الانسان شىء من الحيلة اذا ما تحدث عنها وهم يقيمون في اجزاء كثيرة من بلاد العرب والهند ويقال ان منهم من يسكنون في بعض اجزاء روسيا .

ويقال ان الامام يحيى قد ارسل الى ناحية «حراز» جنوده فجأة لتجريد الاسماعيليين من اسلحتهم ومصادرة كتبهم المقدسة التي ملأوا بها خمسين صندوقا كبيرا واعتقلوا اربعين من رؤسائهم اخذوهم اسرى الى صنعاء وفرضوا عليهم اما ان يعتنقوا المذهب الزيدى او ترك بلاد اليمن الى غير رجعة ولقد مات كدداً وغماً بعض هؤلاء الرؤساء الاسرى الذين اضطروا الى اختيار احد امرين أحلاهما مر !!

وقد بقي الاسماعيليون في اليمن ولكن هل يجب أن يثق أنسان بهؤلاء الزيود الجدد ؟

وقد سار الامام يحيى على طريقة اخذ الرهائن من بعض القبائل وليست هذه هي الطريقة المثلى التي من الممكن اتباعها لتكوين وحدة روحية متينة في اليمن بل انها على العكس تحيى الاحقاد وتجدد الخلافات القائمة بين المذاهب الاسلامية المختلفة ولكن يبدو لى انها الطريقة الوحيدة التي تستطيع حكومة

تقوم سلطتها على شعور الشعب الدينى - أن تستعملها لكي تكون فى مأمن من دسائس اقلبيات تخالفها فى العقيدة الدينية .

ويبلغ عدد هؤلاء الرهائن أكثر من ألف منهم ثمانمائة فى صنعاء ومائتان فى الحديدة وكلهم من الاحداث الذين تتراوح اعمارهم بين العاشرة والثامنة عشر يمثلون كل القبائل الغير الزيدية وهذه القبائل تستبدلهم كل بضعة اشهر بغيرهم من الصبية . ويقوم الرهائن فى مدينة صنعاء فى « القصر » وهو حصن العاصمة اليمنية المنيع وهذا الحصن قلعة عظيمة تكسبها مداخيلها المتتوية وجدرانها العالية الخالية من الفتحات منظرا قاسيا مخيفا ولكن مدافعها الموضوعة فى ابراجها الجانبية لا تطلق الا للتحية وفى المواسم والاعياد الرسمية ويجد الانسان فى « القصر » شيئا من كل شئ ففيه دار سك النقود وعماله من اليهود وفيه مصنع حربى جرب فيه مرة صب أحد المدافع الذى انفجر عند أول طلقة اطلقت منه كما أن فيه مخزنا للادوات والآلات الحربية الغير المستعملة وفيه غير ذلك كله ثكنة لفرزة من الجنود ومدرسة للايتام الذين يعلمهم الامام القرآن وأصول الدين ويلبسهم بذلة صفراء وفيه علاوة على ما ذكر سجن يودع فيه المحجوزون على اختلاف أنواعهم وفيه الرهائن الذين وضع لهم نظام وسط بين نظام الجنود ونظام الايتام ونظام المسجونين فهم يشتركون احيانا فى الاستعراضات العسكرية ويسيطرون فى صفوف الجيش بدون أن يحملوا سلاحا وفى « اليمن » يخجل الشاب كل الخجل اذا ما ظهر امام الجمهور بدون أن يحمل على الاقل خنجرا فى خصره وهو يسير بين صفوف الجنود المسلحين حتى اسنانهم .

والقبائل التى أخذت منها هذه الرهائن هى التى تتولى الاتفاق على طعامهم وملبسهم وكذلك تفعل اسر المحبوسين فى الجرائم العادية فهى التى ترسل اليهم الماء والاكل والملبس . وألا يكفى ان تقدم لهم الحكومة من عندها المسكن والقيود ؟

وما لاشك فيه ان هذه الحال تسبب لليمن بعض المتاعب اذ تجعله جامدا

الكنيس المخبوء !!

في فجر أحد الأيام نفق حمار أسود اللون في طريق من طرقات مدينة صنعاء في أثناء قيامه بعمله اليومي الماضي اذ كان يحمل الى السوق حملا ثقيلا من تلك الأقراص الكريهة الرائحة التي هي خليط من القش وروث الجمال التي يتألف منها النوع الوحيد من وقود أفران البلاد . ولما رآه صاحبه قد عجز عن مواصلة السير ووقف وتعثر دون أن تستحنه الصيحات العالية ولا ضرب العصي ثم لم يلبث أن وقع على الأرض لاهراك به خلع عنه حملة الذي ناء به وتركه حيث هو بعد أن وضع على مقربة من فمه حزمة من الحشيش الأخضر على أن الدابة المسكينه لم يكن قد بقي فيها نفس ولم يكن فيها قوة على تناول زادها الأخير

ولما كانت معظم طرقات صنعاء ومنها ذلك الطريق الذي سقط فيه ذلك الجحش المسكين لا يزيد اتساع الواحد منها على اتساع أى زقاق الا أنها تبدو كثيرة الحركة وتزدحم دائما بالرائحين والغادين فانه يمكننا أن نتخيل ما يسببه من الضيق والغم وجود تلك الجيفة التي تعرقل حركة المرور والتي سرعان ما تفتنخ وتفسد الجو برائحتها الكريهة المؤذية دون أن يهتم انسان بتحريكها أو نقلها من مكانها حتى الغد اذ أن اليوم هو عيد اليهود واليهود هم وحدهم المكلفون ينقل الجيف من طرقات صنعاء

وعندما كان اليمينيون يمرون من تلك الجهة كانوا يديرون وجوههم الى الناحية الأخرى ويسدون انوفهم وهم يحاذرون ان يلمسوا الدابة النافقة حتى ولا باطراف اخذيتهم وهم اثناء ذلك يصبون لعناتهم على اليهود الذين يفضل الواحد منهم الموت على ان يحرك اصبعاً من اصابعه في يوم السبت . ومع ذلك فهل لم يخطر ببال العرب ان يحل احدهم مرة واحدة محل اليهود ويتطوع بنقل هذه الجيفة من مكانها ؟

اما اليهود في ايام اعيادهم فلا يظهر لهم اثر في شوارع المدينة بل يبتقون في حبيهم البعيد ويقبعون في دورهم المظفأة الانوار وفي كنسهم التي لا يمكن ان يتبينها المارة لعدم وجود علامة تميزها عن بقية المساكن ويلبسون أفخر ما عندهم من الملابس ويشربون النبيذ ويستريحون . . . وكل ما يسمح به ليهود اليمن هو . . . شرب النبيذ والراحة في يوم السبت ولاشئ غير ذلك .

أما القيود المفروضة عليهم فانه لا يخصيها عند اذ ان كل شئ يشعرهم في كل لحظة بالذلة والمسكنة وبالانحطاط ولا يسمح لهم العرب بالسكنى في مدينتهم بل لقد أجلوهم الى « احياء اليهود » الخاصة لكي يبعدوهم على قدر المستطاع عن انظار المواطنين . ويقوم حي اليهود في تعز فوق احد التلال واما « الحى » الذى يقيمون فيه في « معبر » فهو قرية صغيرة ضرب حولها سور وتبعد بضع كيلومترات عن مساكن المدينة واما « حي اليهود » في صنعاء الذى يقال له « قاع اليهود » ففي احدى ضواحيها التى كادت تربطها بالمدينة المباني التى شيدها الاتراك تدريجاً في ايام حكمهم لليمن

ومما لاشك فيه أن اليمن ليس هو وحده البلد الذى يضطهد فيه اليهود والذى يلاقون فيه مثل هذه المعاملة الشاذة لأن المسكنة والعزلة التى ضربت عليهم كانت حظهم المعتاد منذ الازمان الماضية (عندما لا يطردهون من البلاد كما هو حادث في هذه الايام) على انهم كانوا يوماً ما سادة هذه البلاد التى لا تزال تسمى اليهم وتضطهدهم كما كانت تفعل في القرون الوسطى

وفي الحق انه لم تبق اية ذكرى طيبة لاستعمار اليهود لليمن لان اشهر ملوك بنى اسرائيل الذى كان يلقب باسم (ابى نحواس) بسبب الضفائر التى كانت تتدلى من صدغيه - كان يضطهد نصارى (نجران) أشد اضطهاد ويقال انه اتى بعشرين الفا منهم في النيران المستعرة ولكن ليست ذكرى هذه القسوة الوحشية وذلك التعصب الدينى الشنيع هى التى تحمل اليمنيين على أن يفرضوا على اليهود حلق رؤوسهم وترك لحاهم مرسله على اصداغهم بل ان ما يهتم له الزيدون هو أن يكون ثمت ما يميز اليهودى عن العربى المسلم . فلا عمائم لليهود لانهم لا يلبسون الا قلنسوة سوداء ولا ملابس مزركشة بل قفطان من التيل أو الصوف !!

ويمكن القول بان العرب لا ينفذون الى اليهود الا نظرة الاحتقار والاشتمزاز . ولكن ترى من عساه يشكو في اليمن من معاملة أسوأ من هذه المعاملة ؟

لا أحد ... فالرق هنا يكاد يكون اسما لا معنى له والعبيد القلائل وكلهم من الاحباش يعاملون معاملة رحيمة ويعيشون عيشة قد يغبطون عليها من كثيرين من الاحرار فهم يندمجون في الامر وتلحق النساء بالحرير وينتهى الامر برجالهم أن يصيروا خدما مخلصين لسادتهم ومالكيتهم ورغمما من سهر الدول ويقظتها لا ينقطع تجار العبيد عن مزاوله تجارتهم الذميمة الممقوتة فهم يسوقون العبيد في جماعات صغيرة الى الجهات الصحراوية المقفرة على شواطئ البحر الاحمر ويركبونهم (السنائيك) التي تنقلهم الى الشواطئ العربية وشواطئ خليج فارس ويقال ان النخاسين يخوفهم من ان تدركهم سفن البوليس المخصص لمنع تجارة الرقيق اعتادوا أن يربطوا حجرا كبيرا في قدم كل عبد حتى يستطيعوا اخفاء حملهم بالقائه بسرعة في البحر اذا ما اقترب منهم مطاردوهم ولا ادرى اذا كان بعض هذه (السنائيك) لا يزال يظهر امام الشواطئ اليمنية الى الآن حيث ان بضاعتها اصبحت غير مرغوب فيها

ومما لا شك فيه أنه كانت هناك عبودية حقيقية في وقت من الاوقات ولكنها سرعان ما فقدت في اليمن كما في غيره من بلاد العالم الاسلامي الكثير من أشكالها الكريهة اذ ان العبيد كان في مقدورهم دائما أن يتحرروا وأن يعملوا في الصناعات والمهن التي تعافها نفوس العرب وهنا في اليمن طائفة خاصة من الخدم يقال لها (الاخدام) تتكون من أناس من شتى الملل والنحل هم خليط من كل سلالة ومن كل جنس تقوم باعمال مختلفة فمنهم القصابون والحلاقون والحجامون والختانون وعمال الحمامات العامة والحاملون ومفرغو السفن في الميناء والنسوة اللاتي يعملن في تنظيف البن وفرز حباته ومما لا شك فيه أن حالتهم الاجتماعية لا تدعو للشفقة وعلى الاخص اذا كانوا مسالمين اذ انهم يتمتعون بكافة الحقوق المدنية ومنها امتلاك العقارات .

ولقد سمح لليهود بان يتملكوا منازل يسكنونها على شرط أن تكون ذات شكل متواضع وان لا تتكون الا من طابقين اثنين والواقع ان الانسان سرعان ما يلاحظ عند زيارته للمدن الجنية ان لدور اليهود منظرا يختلف كل الاختلاف عن منظر القصور الجنية ذات الزخارف الكثيرة ونحن في غنى عن القول بان قاع اليهود اذا ما قورن باحياء العاصمة الأخرى لا يبعد شيئا مذكورا وعلى الاخص بسبب خلوه من المساجد الجميلة ذات القباب الفخمة والمآذن الرشيقة وما تعطيه لها من جمال واهبة وجلال

وفي الحق انه توجد بعض الكنس في اليمن وعددها لا بأس به ولكن « الكنيس » لا يجب أن يمتاز عن الدور في شيء ولا يجب أن تبدو فوقه اية علامة خارجية تميزه عن منازل « قاع اليهود » لأن منظره يسبب الملل وتشتت منه نفوس اليمنيين وهكذا أصبحت « الكنس » مخبوءة ومحجوبة عن العيون وكثيرا ما يلاحظ الانسان وهو سائر في طرقات حي اليهود القدرة الضيقة جهورا صغيرا يخرج من باب صغير في أحد المباني هم رجال نحاف الجسوم صفر الوجوه ونساء يغطين رؤوسهن بمناديل كبيرة سوداء اللون طرزت حوافها بالفضة واطفال يحملون فوق ملابسهم كل نوع من انواع التأمم التي تقيهم شر الحن ولا يخرج كل هؤلاء من حفلة استقبال أو من إحدى الولائم بل من « الكنيس » وهذا الباب الصغير الذي يخرجون منه يؤدي الى فناء طليت جدرانها بالجير وبه بعض مكاتب وغرف صغيرة وفي آخره يفتح باب المعبد وهو غرفة فسيحة فرشت ارضيتها بالحصير وقد خلت من الامتعة والرياش الا من خزانة صغيرة أعدت لحفظ الكتب المقدسة

ومن اسعده الحظ بزيارة مساكن اليهود بصحبة واحد منهم تتكشف له حقيقة حياة الاسرائيليين في اليمن تلك الحياة المكرسة كلها للاسرة والعمل فهم يعنون بمساكنهم عناية يندر أن يجدها الانسان في منازل العرب والترجيلات الفخمة المزركشة التي هي نحر « المفارج » الجنية وزينتها والتي هي بهجة المدخنين تصنع في هذه الافنية التي تصنع فيها ايضا كل الحلى

والمصوغات الذهبية والفضية الرقيقة من العقود والاساور والخواتم والدلايات
والتأتم التي يحلو لنساء العرب التزين بها

وليس في استطاعة اليهود كما قلنا حمل السلاح ومع كل فهم الذين يجعلون
مقابض الخناجر والسيوف ذات منظر فخيم عظيم بما ينقشونه ويحفرونه عليها
من نقوش وزخارف بديعة

وليس لهم حق السكنى في قصور فخمة رائعة أو دور مزخرفة انيقة
ولو أنهم هم الذين يبنون قصور السادة والاغنياء والامراء ويزينونها
أحسن زينة !

ولا يسمح لليهود بركوب الخيل على ان البرادع الجميلة التي توضع فوق
ظهور الجياد العربية الاصلية انما تخرج من تحت ايدي اليهود المساهرة
العاملة الناصبة

وصفوة القول ان معظم تجارة وصناعة المدن اليمنية تكاد تكون
محصورة في ايدي اليهود ومع كل ذلك نرى العرب يضررون لهم كل احتقار
وازدراء ولو أنهم يعلمون كل العلم أنهم لا يستطيعون الاستغناء عن عملهم
الثمين ويهتم الامام يحيى بنافذ بصره وواسع حكمته كل الاهتمام باليهود
ويقدرهم حق قدرهم . وهناك في اليمن قانون قديم معمول به من عهد بعيد
يقضى بانتقال املاك من يخرج من اليمن من اليهود الى يد الملك ومع ذلك
فقد تم في السنين الاخيرة ارتحال عدد عظيم من اليهود واذكر أني شاهدت
في ليلة دافئة من ليالى شهر ديسمبر الماضى بضع مئين من اليهود عند مرسى
البواخر في ميناء عدن مجتمعين ينتظرون دورهم للسفر الى فلسطين وطنهم
القومى المزعوم وكانت لمعظمهم تلك اللحية الطويلة المرسلة من اصداغهم .
اما نساؤهم فكان لازلن يحتفظن بملابهن التقليدية التي كن يرتدينها في
المدن التي جئن منها فالصنعانيات كن يلبسن السراويل التيلية السوداء المشدودة
الى كعوبهن برباط من حرير احمر وكن يغطين رؤوسهن بمناديل سوداء
كن يمسكن اطرافها بايديهن لتغطية افواههن . اما يهوديات تعز فكان يتحلين
بعقود مختلفة الالوان وبالكاليل صغيرة لطيفة وقد لبث هذا الجمهور في

انتظاره صامتا لا يبدى حركة ولم تكن تبدو الحياة الا في عيون افراده التي كانت تشرق بالآمال

واليهود هم الذين اشار النبي محمد بانهم أعداؤه الألداء ولذلك صب لعنته عليهم ولعن كل من اتصل بهم والواقع انه خير للمرء ان لا يتعامل معهم وأن لا يجدهم بين قدميه. ولكن لو ان اليهود جميعا تركوا بلاد اليمن فمن ذا الذي يستطيع ان يحل محلهم أو يملأ الفراغ الذي يشغلونه ؟
هل هم العرب ؟

ويعرف الامام يحيى رعاياه حق المعرفة ولذلك ليست عنده شبهة في هذا الامر ويؤثر عدم الاستيلاء على املاك اليهود ومنهم من جمع ثروات طائلة رغم كل الصعوبات التي يلاقونها ويفضل الاحتفاظ باولئك القوم الدمى الخلق العاملين المجددين الذين يساعدون مساعدة جديده على تقدم بلاد اليمن ونجاحها ورفاهيتها وزيادة ثروتها .

ومع ان الامام قد ترك اليهود في حالتهم الاجتماعية المنحطة ولم يعمل على رفع القيود الثقيلة المفروضة عليهم الا انه قد اتخذ في السنوات الأخيرة عدة تدابير من شأنها منع العرب من مصارحة اليهود بالعداوة والبغضاء. ولسوف يقول بعض المتعصبين ان الامام يحمي اليهود ويشملهم بعطفه ورعايته !!

والواقع انه حمايتهم والمحافظة عليهم قد سجنهم واحكم اغلاق الباب دونهم !!

عاهل بلاد العرب

لعل أعظم حادث وقع لليمن فى هذه السنوات الاخيرة كان الخلاف بينه وبين الحجاز . وقد استيقظ العالم الذى لم يكن على علم بحقيقة الموقف فى بلاد العرب الجنوبية بعد انتهاء الاستعمار التركى واستمع لاشاعات الحرب بدهشة عظيمة . فقد ظهر اليمن بفتة امام الناس ولم يكونوا يسمعون به او يعلمون من أمره شيئاً وسرعان ما تناقل الناس الحديث عنه لانه كان يبدو أمامهم كشىء عفى عليه النسيان طفا على سطح الماء الذى كان يغمره ويحجبه عن الانظار من عهد بعيد .

اليمن ؟ ... صنعاء ؟ لم تكن معظم الجماهير تعرف لهذه الانفاظ معنى وحتى الكتاب السياسيون انفسهم اضطروا الكثيرون منهم الى الانقضاء على المعاجم والخرائط الجغرافية يبحثون فيها وينقبون الى الكتب المدرسية يستقرئونها فلم يظفروا منها عن اليمن الا باشياء لا تسمن ولا تغنى من جوع !

وعلى اثر ما كتبه الصحفيون الاوروبيون فى اثناء الخلاف وبعده قامت صحافة القاهرة ودمشق تندد بجهل الاوروبيين ببلاد العرب بوجه عام وباليمن خاصة لان كتابهم اخذوا يتخبطون فى كتاباتهم وخلطوا كثيرا فى الاسماء والتواريخ كما نسبوا الى مختلف البلاد العربية المتاخمة بعضها لبعض سكانا ومذاهب دينية ومصالح تخالف تمام المخالفة سكانها وعقائدها ومصالحها .

وفضلا عن ان السفن التجارية الاوروبية الضخمة الكثيرة العدد تتقابل كل يوم فى مياه البحر الاحمر فانها تمر كل يوم على مرمى السهم من السواحل اليمنية دون أن تعرج عليها . ومن عادة اليمن ان لا يتحدث عن نفسه وان

لا يدع الناس يتحدثون عنه كثيرا لانه يعيش معتكفا في داخل حدوده على ما يشتهي غير مكترث بما يجري في انحاء العالم الاخرى من الاحداث جليلها وحقيرها وبدون ان يخفى رغبته في ان يقلل الاجانب من الاهتمام بما يحدث في داخل حدوده ومع هذا فهل لم يقل الناس دائما ان اسعد الشعوب هي التي لا تاريخ لها ؟

واذا كان لا يزال يوجد شيء من الحقيقة في تلك الميزة القديمة التي يحتفظ بها ذلك الجزء من بلاد العرب فانه كان مدينا به لتلك العزلة التي ياتزمها وذلك الصمت الذي عرف كيف يحيط نفسه به .

اما الجزء الآخر من بلاد العرب وهو الذي يقال له « الصحراء » فقد عرف الناس عنه بعض الشيء في السنوات الاخيرة بفضل ذلك الكتاب الشائق الذي وضعه عنه « لورنس » الشهير وبفضل الرسائل الممتعة التي يكتبها عنه المستشرق « فيلبي » من آن لآخر، كما عرفوا عنه بعض الشيء مما ذاع في اثناء الحرب العالمية الاولى وبعدها عن الحوادث التي اثارها صراع المتحاربين حول قناة السويس والوقائع التي وضعت حدا لحكم الهاشميين وسيطرتهم على الاماكن المقدسة الاسلامية وعن انشاء الامبراطورية الوهابية العظيمة :

ولقد كانت صورة ابن السعود الوقورة وشخصيته المبجلة في الصف الاول دائما لان تاريخ حياة هذا الامير البدوي النبيل والفارس المغوار القدير والسياسي الحاذق الفطن اللبيب الذي هو اشبه شيء بالقصص الخرافية أو الروايات الخيالية كان موضوعا لعدة مؤلفات لبعض الكتاب الذين خلع عليه نفر منهم لقب « نابليون الصحراء »

ويعلم الناس جميعا أن هذا الرجل في مدى عشرات قلائل من السنين قد بنى مجده وألشأ امبراطورية الشاسعة المترامية الأطراف وكانت أسرة آل سعود قد طردت من امارتها في (الرياض) على يد آل الرشيد الذين كانوا يحكمون في (حائل) والذين اضطروا السعوديين الى الالتجاء الى بلاد الكويت . ولقد كان ابن السعود لم يزل في الخامسة والعشرين من عمره وكان لا يزال

فقيرا لا يحكم الا على عصاه عندما فكر في استعادة ملك آبائه وأجداده فقام
ومعه ثلاثون رجلا من رجاله الاشداء المخلصين كانوا على تمام الاستعداد
للمغامرة معه بحياتهم ولاحتمال كل ماقد يصيبهم في سبيل نصرته . وقد نجح
ابن السعود في التسلل ليلا وبدون أن يراه أحد الى (الرياض) والتغلغل في
قلب مدينته القديمة ومسقط رأسه حتى وصل الى قلعتها بشجاعة وجراءة
عظمتين وفيها استطاع التغلب على الامير عجلان وقتله بعد عراك عنيف قام
بينه وبينه جسما لجسم .

ولم يلبث على اثر هذا النجاح الاول ان قام بزحف سريع خاطف خلال
الصحراء الرملية القاحلة واحتل مقاطعات نجد الواحدة تلو الاخرى بعد معارك
دائمة حامية الوطيس وكان احتلاله اياها بهذه السرعة قد جعل له شهرة عظيمة
ذاعت عنه في الآفاق وكان من شأنها ان هابه الجميع واعتقدوا بانه الرجل
الذي لا يقهر !

وكان يتبعه انى سار رجاله البدو الذين كانوا يخضعون خضوعا أعمى
للقوانين والتعاليم الوهابية الصارمة وكانوا يتحملون كل المصاعب ويواجهون
كل الاخطار في سبيل نصرته فلم يمض طويل وقت حتى فتح مدينة
(حائل) بعد أن أباد آل الرشيد وشتت شمل رجالهم كما غزا أرض الاحساء
الواقعة على الخليج الفارسي واخيرا وجه نظره شطر الهاشميين الذين كانوا
اصدقاء لبريطانيا ودخل عاصمتهم مكة في اليوم الثامن عشر من شهر أكتوبر
سنة اربعة وعشرين وتسعمائة والف .

استمرت فتوحاته في الامتداد حتى بعد احتلال الاماكن المقدسة وبعد
ان استولى على جدة تقدم نحو العسير وكان مقدرا له انه في زحفه نحو الجنوب
لا بد وأن يلتقى ويصطدم مع امام الزيديين الذي كان قد احتل اقليم الحديدة
وكان يحاول أن يمد في حدود مملكته نحو الشمال . وفي الحق انها كانت
ستكون مقابلة تاريخية مشهودة بين ملكى بلاد العرب ابن السعود ويحيى بن
محمد اللذين لشخصيتيهما أهمية عظمى لانهما الرجلان الوحيدان اللذان
يستطيعان المفارقة بان مملكتيهما مستقلتان استقلالاً تاماً عن كل سيطرة

من جانب الدول الاجنبية والاذان هما في الوقت الحاضر رئيسان دينيان
لطاقتين كبيرتين من طوائف المسلمين يحكمان حكما او توقراطيا تلك البلاد التي
لا تزال تبهر عيوننا وتأخذ بمجامع قلوبنا وكلاهما لم يخرج للان ولم يتخط
حدود بلاده

وكان حظ بلاد العسير يتأرجح في كفة القدر امام هذين الرجلين العظيمين
والعاهلين الطموحين وكان في استطاعة هذه البلاد أن تقوم بوظيفة دولة تجعل
من نفسها حاجزا وسدا بين دولتي اليمن والحجاز وأن تعيش عيشة سعيدة
ناعمة البال على حساب هذا الوضع لو لم يكن على رأس حكومتها ذاك رجال
ضعاف النفوس لم يعرفوا كيف ينتفعون بهذا الوضع

ولكن الى أية حكومة كان يجب أن تنضم بلاد العسير انضماما شرعيا اذا
ما فقدت استقلالها ؟ أالحكومة الوهابية أو الى حكومة الزيدية ؟
كان الامام يحيى يقول ان العسير كانت في الماضي جزءا من العربية السعيدة
ولذلك يجب ان تعود الى احضان امها اليمن !

اما السعوديون فقد نشروا من جانبهم (كتابا أخضر) زعموا فيه انه لا
توجد حدود طبيعية تفصل بين أجزاء بلاد العرب فضلا عن وحدة اللغة
والدين وقالوا ان شبه الجزيرة العربية انما هو كل لا يتجزأ . . .

وان الذي أعطى تلك الحرب العجيبة التي قامت بين البلدين العربيين طعما
غريبا وساعد على تخبط آراء المراقبين الغربيين انما كان الشكل الذي اتخذته
هذه الحرب والخاتمة الحاسمة التي انتهت بها . اما السبب الرسمي الذي اتخذ
ذريعة للبدا في الاعمال العدوانية فهو قبول الامام يحيى التجاء الامراء
الادارسة الذين كانوا بمعاونة بعض أفراد من اليمنيين يثيرون الاضطرابات
ويعملون على اثارة الفتن ضد الحكومة التي كان قد انشأها ابن السعود في
بلادهم وكان يشملها بحمايته .

لم يلتحم الجيشان في معركة حقيقية لان اليمنيين الذين كانوا يقاسمون في
تهامة أشد انواع الحر كانوا يتحاشون الالتحام في المعركة في السهل الساحلي

المحرق الذي يسكنه قوم يشك كثيرا في اخلاصهم كل الاخلاص لحكومة صنعاء . وآثروا التقهقر الى الجبال تاركين الجيوش السعودية المدربة أحسن تدريب على حروب الصحراء — تزحف بطول الساحل وتتوغل في أراضي تهامة دون ان يقاوموهم حتى دخلوا مدينة الحديدة

ولقد كان من الممكن أن تنشب المعركة في تلك اللحظة عندما اخذ السعوديون الذين كانوا تحت قيادة قائدين محنكين هما أكبر أبناء الملك ابن السعود — يشقون لانفسهم الطريق بين المرتفعات الى صنعاء ومع ذلك فانه كان يبدو للعالم عندما كان يسمع انباء الفتن والثورات في الاقاليم اليمنية وما اذيع من اخبار عن موت الامام يحيى — انه ليس هناك ما يمنع ابن السعود من ضم بلاد اليمن كلها الى بلاده

حقيقة اسرعت الى ميناء الحديدة السفن الحربية التي ارسلتها بمنتهى السرعة الدول العظمى التي لها مصالح في البحر الاحمر ولكن لم يبد ان هذه الدول كانت متفقة فيما بينها على الاجراءات التي يجب أن تتخذها . ومن جهة اخرى كان الناس يعرفون مقدار الصعوبات التي لا بد أن يلاقيها الجيش الوهابي الزاحف وهو يخاطر بالقتال وسط الجبال الوعرة التي لا تستطيع الوسائل الميكانيكية أن تتحرك فيها أو تجد لها فيها طريقا يسهل لها التقدم الى الامام .

وعلى حين بغتة « هب » الصلح وهو في الحقيقة صلح كان أغرب من الحرب لانه لم يكن ليغير الموقف الذي خلقه احتلال السعوديين للعسير تغييرا يذكر فلم تفرض على الامام يحيى اية تعويضات مالية ولم يرغم على التنازل عن شيء من الاراضي اليمنية ولكن الذي فرض عليه انما كان تسليم الادارسة واطلاق سراح الرهائن الذين أخذوا من جبال العسير .. ولا شيء غير ذلك

وهذه المسألة هي وحدها ودون باقي الشروط هي التي اشارت اليها الرسائل التي تبودلت بين المندوبين المتفاوضين . ولكن معاهدة الصلح التي

اطلق عليها اسم معاهدة الطائف لم تكن الا انشودة من اناشيد « الوحدة العربية » .

وقد أصبح المنظر شعريا عندما وصل الادارسة مع اتباعهم الذين كانوا لا يقولون عن ثلثائة شخص الى الحديدة حيث استقبلهم الامير الشاب فيصل آل سعود أحسن استقبال وامرع الامير حسن الادريسي بارسال برقية الى الملك ابن السعود يشكر له لطفه وكرمه . وقد رد عليه الملك السعودى قائلا : « حمدا لله على وصولكم بصحة جيدة . واعلم باركك الله أن كل ما تم انما تم بفضل الله وبأمره فكن مطمئن البال ولن ترى ان شاء الله الامايسرك »

اما باقى المعاهدة فيلقى ضوءا كبيرا على نفسيته هذين الرئيسين العربيين وعلى الاخص نفسية الملك ابن السعود الذى يرجع اليه الفضل فى وضع نص الوثيقة وروحها لانهما « رغبة منهما فى وضع حد للحرب التى قامت لسوء الحظ بينهما والتوفيق بين الأمة الاسلاميه ولصون كرامتها ورفع شأنها والمحافظة على استقلالها - قررا أن يعقدا « معاهدة الصداقة الاسلاميه والاخوة العربية » وأن يوطدا بين الحجاز واليمن علاقات حسن الجوار لكي تتكون من البلدين « وحدة أمام الحوادث المفاجئة ولإقامة بناء متين البنيان يصون مصالح الجزيرة العربية واستقلالها »

وبتوقيع هذه المعاهدة انتهت حالة الحرب وسرعان ما توطد بين البلدين وبين الشعبين صلح دائم وصداقة أكيدة واخوة اسلامية عربية لا يمكن أن تنزع لافى مجموعها ولا فى اى جزء من اجزائها « ولقد اشهد الملك الله على حسن نياتهما ورغبتهما فى التوفيق وجمع الكلمة والاتحاد والتعاون سرا وعلانية واعترف كل فريق من الفريقين المتعاقدين للآخر بكامل الاستقلال والسيادة المطلقة على بلاده متنازلا عن كل حق سبق له أن ادعاه أو طالب به فى أراض أو فيما عداها .

ولقد اتخذت كل الوسائل السلمية التى من شأنها انتهاء هذا الخلاف كما رسمت الحدود النهائية بين البلدين بكل دقة ووضوح مركز القبائل المقيمة على الحدود

من الناحية القانونية وتعهد كل فريق من الفريقين المتعاقدين بأن لا يقيم حصونا على مسافة تقل عن خمسة كيلو مترات من حدود الآخر وأن يسحب جنوده من الاراضى التى اعترف بأنها من بلاد الطرف الآخر .

على أنه توجد فى المعاهدة بعض مواد قد يبدو لاول وهلة انها نصوص شكلية لا قيمة لها ولكنها فى الحقيقة ذات أهمية عظمى ومغزى كبير ومنها هذه المادة : « يقرر الطرفان المتعاقدان المرتبطان بروابط الاخوة الاسلامية والجنسية العربية أن أمتيهما انما هى أمة واحدة وانهما لا يضمران الشر لآخر وأنهما يعملان على رفعة شئون الأمة تحت ظل السلام والهدوء وانهما سيبدلان جهديهما فى كل وقت لخير بلاديهما وأمتيهما دون أن يحاولا الاعتداء على أحد . وفى حالة اعتداء أجنبى على اراضى أحد الطرفين يلتزم الطرف الثانى بتنفيذ هذه التعهدات وبالمحافظة على حياده سرا وعلانية وبتقديم المساعدة الادبية الممكنة وبالبدء فى مفاوضة الطرف الآخر لمعرفة أحسن الطرق لضمان سلامة أراضيه وتجنب الاضرار به وبالاتىام عن القيام بأى عمل يمكن أن يفسر بأن من شأنه معاونة المعتدى الاجنبى »

« ويقرر كل فريق من الفريقين المتعاقدين ايضا باستعداده للسماح لمندوبيه وممثلية فى الخارج بتمثيل بلاد الطرف الآخر فى أى أمر وفى أى وقت عندما يرغب الطرف الآخر فى ذلك ويكون مفهوما بأنه متى وجد اشخاص من الفريقين يقومون بهذه الوظيفة فى مكان واحد يكون من الواجب عليهم أن يتشاوروا الكى يوحدوا مسلكهم لمصلحة البلدين والشعبين اللذين يعتبران كأنهما أمة واحدة . ويكون مفهوما كذلك أن هذه المادة لا تقيد فى شىء حرية أحد الفريقين فى مزاوله أى حق من حقوقه ولا يمكن أن تفسر بانها تحدد حرية الطرف الآخر أو تلغياها »

وسرعان ما ادهشت هذه المعاهدة العالم بأسره للكرم والتسامح اللذين أظهرهما ابن السعود والذين زادا فى رفعة مقام « نابليون الصحراء » وعلو مركزه فى نظر العالم العربى اذ لن هذه المعاهدة بدأت تعتبر النداء الاول أو النداء الرسمى الجديد « للوحدة العربية »

ولا حاجة لتفسير اعتدال ملك الحجاز بصعوبة بقاء تهامة في يديه بدون احتلال الهضبة اليمنية كلها أو بالخوف من تدخل الانجليز ومعارضتهم في انشاء دولة عربية كبيرة متحدة في بلاد العرب . وربما كان لمثل هذه الاعتبارات تأثيرها في مجرى الخلاف . وعلى كل فان ابن السعود لم يدع الفرصة تفلت من بين يديه تلك الفرصة التي سنحت له وأخذ يبت افكاره وآراءه في المسألة العربية اما فكرة تحقيق (الوحدة العربية) التي لم توجد قط في غير الوقت الذي استطاع فيه (الرسول) تحقيقها فقد كانت فكرة الشريف حسين الهاشمي أمير مكة وملك الحجاز الأسبق الذي عمل على تحقيقها في عام ١٩١٦ بعد أن أصبح ملاكاً على الأراضى المقدسة كما نادى بها أيضاً و اراد العمل لخراجها الى حيز الوجود ابنه الملك فيصل الذي ارتقى بمساعدة الانجليز عرش العراق .

ويمكن القول بان هذه الفكرة كانت حتى الأمس فكرة الملوك الهاشميين قبل غيرهم من العرب . أما الآن فموت الحسين وفيصل واختفائهما من مسرح السياسة العربية يتلفت المطالبون بالوحدة العربية نحو ابن السعود وينظرون اليه بصفتة الرجل الوحيد الذي يستطيع تحقيق حلمهم الذي لا أدرى ما الذي يمنع العرب جميعاً من اعتبار ملك الحجاز الذي هو أقوى مركزاً وأحسن استعداداً من الملوك الهاشميين - الشخص الوحيد الذي يستطيع تحرير الشعوب العربية الأخرى من كل نوع من انواع الوصاية الأجنبية ويضمن لامتهم وحدتها وكامل استقلالها ؟

ويجب قبل كل شيء ان لا يغيب عن بالنا مركزه بوصفه رئيس الدولة الوهابية وقد قام ابن السعود بتموحيته باسم الدين فكان رجاله يذهبون الى النصر والى الجهاد والى الاستشهاد فى سبيل قضيتهم بنفسوس راضية مطمئنة كما كان يذهب المسلمون ايام نشأة الاسلام للجهاد وللموت فى سبيل الله . ولكن هل تستطيع الدول العربية التى اصابت طرفاً من المدنية بعد احتكاكها بالمدنية الغربية أن تقبل الخضوع للتقواعد لصارمة التى يفرضها المتطرفون الوهابيون ؟ اراد ابن السعود بمعاودة الطائف ان يطمئن هذه الدول من هذه الناحية

وأن يقنعها بان لا تخشى شيئا من ذلك . وان عبارة (البلدان أمة واحدة)
التي وردت وتكرر ذكرها أكثر من مرة في هذه (المعاهدة) انما هي برنامج
لا يبرر أى تحفظ . وفضلا عن ذلك فانها قد قدمت على سبيل المثال في اتفاق
عقد بين بلدين مسلمين عرييين يختلف أحدهما عن الآخر في مذهبه الديني
كل اختلاف .

ولقد كان للعقيدة الدينية حتى اليوم المكان الأول في الاعتبارات
السياسية عند المسلمين العرب أما الآن فيجب ان تخضع العقيدة لفكرة (الأمة)
وقد يكون من الصعب القول بأية نفس قبل بعض اليمنيين أن يوقعوا في معاهدة
الطائف على (النداء) الجديد للوحدة العربية . ومما لاشك فيه أن هناك نفرا
من المحافظين يعتقد في قرارة نفسه ان هذه المعاهدة قيمتها في أنها عقدت
لتجنيب البلادين ويلات الحرب ولعدم سفك دماء المسلمين لأن هذا النفر
لا يعرف ما هي (الوحدة العربية) ولا ما هي (الأمة) لأن اليمنيين زيدون
وسيقون زيديين الى ما شاء الله اذ بينما كان رؤسائهم المتصالحون يرتبطون
بروابط الصداقة والمحبة ذهب ثلاثة من اليمنيين المتعصبين لاداء فريضة الحج
في مكة وحاولوا برعونة وغباوة وطيش - الاعتداء على حياة الملك ابن السعود
أمام الكعبة . والايمان هو عندهم وسيبقى دائما الى اليمين وسوف يستمر
مسيطرا على أفكارهم وعلى أعمالهم كلها !

ولكن مما لاشك فيه ان هؤلاء اصبحوا أقلية في اليمن ويوجد الى
جانب هؤلاء كثيرون يرون في معاهدة الطائف اساسا لصالح الحياة هادئة مستقرة
ووسيلة ناجحة لتقدم الدول العربية وسعادتها وذلك لأن الفكرة الوطنية التي
تضمنتها والتي نودى بها اذا لم يكن من شأنها تحرير البلاد العربية الخاضعة
للحماية أو الوصاية أو الرقابة أو الانتداب الاجنبي فانها على الاقل سوف تشجع
على مقاومة ماقد تقوم به الدول الاجنبية من اعتداءات أو محاولات لخلق
الحرية في أى بلد من البلاد العربية .

ويمكن القول بان ابن السعود قد اصبح في الواقع من الآن فصاعدا هو
القائم على رأس حركة (الوحدة العربية) وهو الذي منحها (دستورها) الجديد

في (معاهدة الطائف) تلك المعاهدة التي اراد أن تكون (نجم الصباح) الذي يهتدى بنوره الوطنيون والتي افتخر بعقدتها نزولا على دعوة مفتى القدس وكبار الشخصيات الاسلامية .

ولقد أصبح مقامه ونفوذه كرئيس ديني يمتد الى خارج نطاق حدود مملكته الواسعة . وان زيارة ابنه الاكبر بعد عودته من رحلته في اوربا لرؤساء العرب في فلسطين وشرق الاردن لا تخلو من مغزى عظيم . كما أن زواج الملك السعودي من ابنة الزعيم المشهور نوري الشعلان رئيس قبائل (الرولة) في الشام له شأن كبير لانه اعتاد أن يقوى سياسته الخاصة بمصاهرة القبائل الكبيرة جريا على سنة نبي المسلمين !

بلاط يحيى بن محمد

ليست الملك اليمين « حكومة » ولكن له « بلاط ». وهذا ما يلائم حاله
ومركزه تمام الملائمة فهو ملك او توراتى قائل حازم عظيم الخبرة بالرجال
الذين يعتمد عليهم ويضع ثقته فيهم والذين يختارهم لمعاونته وهو عايم بما
يحاك حوله من الدسائس ويعرف طرق الوقاية منها كما يعرف كيف يقاومها
ويفيد منها الى أقصى حد ممكن .

وكثيرا ما يعين الامام « وزراء » ولكن هذه الألقاب التي يخلعها عليهم
ليست في الغالب سوى ألقاب شرف ولا شيء غير ذلك فأحد أولاده هو
وزير المالية ويعلم الناس جميعا أن الشؤون المالية في اليمن انما يهتم بها الامام
بنفسه ويسهر عليها بيقظة وحذر كما أن ولدا آخر من أولاده هو وزير المواصلات
واسنا في حاجة الى القول بان حركة التنقل في اليمن محدودة الى أقصى حد
وتقوم في الغالب على ظهور البغال وفوق متون الابل في القوافل القديمة
البطيئة . اما البريد فانه رغم نشاطه لا يزال في عهد البداية كما أن التلغراف
لا يدع مجالا للاهتمام بشأنه .

على انه في الظروف الاستثنائية اذا ما جد الجد وافتضى الأمر اتخاذ قرارات
هامة — يجمع الملك مجلسا يضم وجهاء البلاد وعلماءها وذوى رأى فيها ممن
عرفوا بالخبرة والحكمة وبعد النظر واصاله الرأى لكي يبحثوا الموقف من
كل نواحيه ولكي يشتركوا معه في تحمل المسؤولية ولو أنه قد جرت عادة
الامام أن يعمل في أغلب الاحيان ما يترأى له . فالحكومة هي الامام
والامام هو الحكومة وهو يصدر قراراته في كل أمر من أمور الدولة جل
أوهان أولا بأول دون أن يترك لأحد غيره عناء التعب أو التفكير ومع

ذلك فانه ليس من حق معاونه أن يتقلدوا الوظائف بدون أن يؤدوا عملاً يوازى المرتب الذى يتقاضونه من مال الدولة . وان ملكاً مثل يحيى بن محمد لى اشد الحاجة الى الرجال الاذكياء الموثوق بهم الذين يفهمون اخلاقه الحق الفهم ويتوجهون اليه بايحاءاتهم الحكيمة بدون أن يظهروا له انها نصائح أو ارشادات والذين يعرفون كيف يجعلونه يصدر أو امره ويحملونه على تنفيذها وينظرون الى كتفيه دون أن يثقلوا عليهما للدفاع عنه وحمايته والذين يتحلون بفضيلة الاعتدال والانصاف .

وجدارة الامام انما هى فى أنه فهم حقيقة هؤلاء الرجال وعرف كيف يعثر عليهم . وهؤلاء لهم ايضا لقب « الوزراء » ولكن من العبث محاولة العثور على وزاراتهم (١) اعنى دواوينها ودرجاتها البيروقراطية . أما مراكزهم فهى وسائد « الديوان » التى يجلسون عليها فى حضرة مليكهم . وأما سكرتاريوهم فيؤخذون من بين الكتاب الذين يتجمعون فى ابهاء (المقام) وغرف الانتظار فيه .

ولقد استطعت بعد الجلسة الاولى التى جلستها مع الامام التقرب من كبار الشخصيات الذين يحيطون به لان الابتداء بالتعرف بهم يعتبر مخالفة لأبسط قواعد الآداب ونواميس اللياقة لأن واجب الضيف أن يبدأ بتحية « رب البيت » قبل أى شخص آخر . ولقد اتبعت هذه العادة من أزمان بعيدة حتى عند سفراء العرب لدى الممالك الاوربية فان سفير « باشا » طرابلس الغرب الذى أرسل الى مدينة كوبنهاجن فى منتصف القرن الثامن عشر رفض استقبال كبار الشخصيات الذين جاءوا لتحيته ولتهنئته بسلامة الوصول ولم يشأ أن يتحدث الى أحد منهم قبل أن يستقبله وزير الدولة .

والى بضع سنوات كان كل من يأتى لزيارة صنعاء يضطر للبقاء فى مسكنه حتى اللحظة التى يحظى فيها بشرف المقابلة الملكية فاذا كان الملك منحرف

(١) الحقيقة ان لوزارات الدين دواوين خاصة لها موظفوها وكتابها

المزاج أو خرج الى الريف أو مشغولاً بأى عمل هام من أعمال الدولة أو اذا لم يكن مستعداً لاستقباله فى الحال وجب على الضيف المسكين أن يسجن نفسه سجيناً كان يطول فى بعض الأحيان ويستمر مدى أسابيع كاملة .

ولقد بحثت فى بادئ الأمر عن القاضى عبد الله العمرى وقابلته عند عودته من المسجد بعد صلاة العصر وكانت تحيط به جمهرة كبيرة من السادة ويسير فى اثره خلق كثير من عامة الشعب ومن خلف هؤلاء « ركابى » يمسك بلجام جواده الأبيض ولا أظن أن القاضى عبد الله يحب هذه الاستعراضات أو يميل الى هذه المظاهر ولكن جرت العادة بذلك اذ انه لا يليق بشخصية او بموظف كبير المقام أن يخرج فى طرقات صنعاء بدون أن يكون فى معيته « حرس شرف » كهذا وكلما علامقام صاحب الوظيفة كلما زاد عدد حاشيته التى تتبعه والتى تسير فى اثره أنى سار .

والقاضى عبد الله هو الذراع اليمنى لجلالة الامام ويسميه البعض (وزير الداخلية) كما يخلف عليه البعض لقب « رئيس الوزراء » ولقد استقبلانى فى بهو صغير كان النور يتسلل اليه من خلال الزجاج الرخامى الذى كان يلقى ضوءاً على السكتب المصفوفة فى العيون المفتوحة فى الجدران العارية . ودار هذا الوزير من اجل ما رأيته من الدور فى العاصمة اليمنية ويقوم فوق سد « غيل الاسود » الغليظ الى جانب غدير تكاد تجف مياهه طول السنة ومع ذلك فانه عندما يمتلئ بالامطار التى تهطل فى فصل الربيع يشق المدينة الى شقين ويعرقل حركة المواصلات وهذا مادعا الاتراك الى ان يقيموا فوقه قنطرة صغيرة وعندما رأى اليمنيون هذه القنطرة قد أقيمت وانفتحوا بها وجدوا ان فكرة اقامتها لا بأس بها ولا ضرر منها ولذلك تركوها حيث هى

لم تكن زيارتى للوزير عبد الله سوى عمل من أعمال البروتوكول لانى لما كنت أعرف مبلغ اعتدال هذا الوزير واحلاصه لمليكه لم أشأ أن اثقل عليه أو أقدم له شيئاً من الأسئلة المخرجة التى اكسبت الصحفيين شهرة « الثقلاء » وقد كان معاليه يتحدث الى وهو يبتسم ابتسامة فاترة لم تكن لتشجعتى على

الاقدام أو الجرأة أو على الاكثار من الأسئلة وكان يتكلم بصوت هادىء لا تتغير نبراته لم يرفعه لحظة واحدة طول مدة حديثنا وكان الحديث بيننا يجرى بتبسط وانشراح فى موضوعات شتى لأهمية لها على الاطلاق. والقاضى عبد الله رجل فطن لبيب معتدل لا أثر فيه للتعصب يستطيع تفهم الآراء الغربية ويتقبلها قبولا حسنا واذا كان فى اثناء حديثه يمسك بكتايديه قبضة سيفة المتدلى فوق بطنه من حزامه الجلدى الموشى بالذهب فانه لم يكن يفعل ذلك الا لانه لم يتعود الاستعانة فى كلامه بالحركات والاشارات كما يفعل البعض عند ما يتكلمون . ولما سألته عن الاخبار الخاصة بالموقف اليمنى اجابنى بانى يستطيع ان اجد كلما اريد معرفته فى هذا الشأن عند وزير الخارجية .

أما ذلك الوزير فقد سبق لى ان رأيته فى « الديوان » الملكى ولما كان الملك يتحدث الى عن صوم رمضان بدرت منه عبارة ابتمس لها المجلس كله اذ قال لى وهو يغمض طرف عينه ان الصيام فيه فائدة للصحة ولو أن هناك احد الاثراك يرى ان فيه شيئا من القسوة والصرامة. ولما كنت انتبه نظرات الجالسين امكننى ان افهم بسهولة ان « احد الاثراك » هذا الذى قصده المليك انما هو راغب بك . وهو رجل لطيف وردى اللون تحيط بوجهه لحية بيضاء مستديرة وكان يجلس الى جانبي وهو يخفى كتفا يديه فى اكمام ثوبه الفضفاضة ونظر الى هو ايضا بطرف عينه وقال : هذا هو ما اعتقده ! !

أما البيت الذى يسكنه وزير الخارجية فقد سكنه الامام على اثر عودته الى صنعاء قبل ان يبنى « بيت الشكر » . وفى هذا البيت يستطيع الانسان - والله الحمد - أن يجلس فوق مقاعد مريحة وأن يتحدث كما يشاء بغير حاجة الى مترجمين

ووزير خارجية اليمن هو احد الدبلوماسيين الاثراك السابقين كان قد أرسل الى اليمن فى مهمة خاصة بعد أن قام بوظيفة قنصل فى عدة مدن من مدن آسيا وأوربا ولما جاء الى اليمن ارتبط باوثق روابط المودة والصدقة مع الامام يحيى الذى استبقاه الى جانبه بعد أن أخلى الاثراك البلاد اليمنية وترحوا عنها ولقد بقى راغب بك من ذلك الوقت الى الآن عند صديقه ولا يوجد من هو

أصلح منه في اليمن في الوقت الحاضر للقيام على ادارة الشؤون الخارجية في هذه الحكومة الجديدة .

ولقد توطدت الصداقة بين راغب بك والامام مع مرور الزمن وخاصة بعد أن زوج ابنتيه لولدين من أولاد الامام . وراغب بك رجل مثقف واسع الاطلاع لطيف المعشر دمث الخلق لا يمتاز الغرييون عنه في شيء سواء في عاداته أو في طباعه . وتحت الثوب اليمنى المفتوح من الامام الذى يرتديه ينتهى قميصه المخطط بثنية حول عنقه تشبه الياقة ولا ينقصه الا «رباط الرقبة» حتى يوجد توفيقا جديا بين اللباس الاسيوى واللباس الاوروبى . هذا ولم تكن السنون الطويلة التى قضاها راغب بك في اليمن لتخمد فيه الحنين الى أوروبا وقد حدثنى بسرور وصارحنى برغبته الشديدة وغزوه على القيام برحلة اليها في أقرب فرصة على أن تكون أول مدينة ينزل فيها هى نابولى ثم يعرج على روما لانه يريد ان يستعيد فى نابولى ذكريات سنه الحضر اوات عندما بدأ أولى خطواته فى السلك القنصلى وفى الثانية يريد التعرف الى كبار شخصياتها وزعمائها .

ويظهر راغب بك حبا صادقا لليمن ورغبة شديدة للعمل على اسعاده دون أن يبدو عليه التحفظ أو الاحتياط الذى يبديه فى احاديثهم أهل هذه البلاد انفسهم فيقول : « اننا نعمل على ترقية هذه البلاد المحبوبة وفى هذا جهد شاق ولكنه شائق لذيذا قدم عليه بشغف ولكن للوصول الى هذا الغرض يجب التغلب على الكثير من المصاعب وتخطى الكثير من العقبات وأولى هذه العقبات هى المقاومة العنيفة والعراقيل التى يضعها المتعصبون فى طريق كل تجديد . وليس من شك فى انه يجب علينا ان نعمل هنا الكثير لان كل شيء محتاج الى اصلاح بل يجب خلقه من جديد . وان انشاء الطرق التى قطعتموها والتي تربط صنعاء بالحديدة وعدن اعمال ذات أهمية عظمى قنابها ولكن السير فيها لا يزال شاقا متعبا بعض الشيء ولا يمكن القول بان من يطرقونها كثيرون

ولكنها على كل حال تشير الى بداية عهد جديد له ما بعده فاليمن المترهب قد أخذ يشق لنفسه الطريق للمشاركة المدنية وسوف يكون تقدمه ونجاحه اليوم اسهل واسرع من ذي قبل .

ولقد كان الامام ولا يزال عدوا لاتفاقات الاقامة لانه يرى أن اليمن بسبب طريقة نظام حياته الخاصة وتقاليده شعبه وبسبب أحواله وظروفه ليس في حالة تسمح له باستقبال الممثلين الاجانب أو بارسال ممثلين الى الخارج في الوقت الحاضر على الاقل اذ لا تزال تنقصنا الدرجات والوظائف لنظامنا التقنصلي والدبلوماسي ولا يجهل ملكنا ما يعلقه كل بلد حر من الاهمية العظمى على علاقاته الدولية واني لعلى يقين من ان هذه المسألة يمكن اعادتها معها في اقرب فرصة ولقد بدأنا في ادخال اصلاحات جديدة على طريقة الحكم في بلادنا بقصد التخفيف بقدر المستطاع من الابعاء الملقاة على كاهل الامام والتي زادت على حدود طاقته ولجعل الوسائل الادارية احدث وأكثر مرونة مما هي الآن كما يجب أن نعمل على تقسيم العمل الاداري وتوزيعه بانشاء درجات وادارات ذات رؤساء مسئولين »

ومن المحاولات التي أشار اليها راغب بك في حديثه والتي عملت لجر بلاد اليمن خارج دائرة القرون الوسطى يمكننا أن نذكر على سبيل المثال ما أدخل من التجديد على النظام القضائي وأهم نقطة في هذا الموضوع هي الخاصة بالاجانب الغير المسلمين . ويهتم الامام كثيرا بالاجانب المقيمين هنا ويكلف عساكره بالعناية بمساكنهم وبالسهر على راحتهم وطمانينتهم كما أنه يقدم لهم حرسا خاصا يصحبهم في روحاتهم وغدواتهم . ولقد لقيت انا نفسى لطفًا كبيرا ومجاملة عظيمة من جانب السلطات اليمنية وعظما كبيرا من جانب الشعب

وقد حدث هنا ان حكم القضاء بادانة مسلم من جنسية أجنبية وهو محتمل شهير ونصاب عالمي ومغامر كبير له عهد طويل وسوابق عديدة في النصب والاحتفال وفي الفضائح التي ارتكبها في كل بلاد الشرق وقد اتصل بأوثق

الصلوات بالسيد ادريس السنوسى أمير برقة السابق وزوجه من ابنته ولكن لم يلبث هذا أن اختلف معه وطلق ابنته ودخل معه فى قضايا طويلة

ولما قدم هذا الرجل الى بلاد اليمن ولم يكن أحد يعلم من أمره شيئا استقبل استقبالاً حسناً ولكنه استغل هذا الاستقبال الذى قوبل به والخفاوة التى لقيها لىكى يخدع بعض الانجليز المقيمين فى مصر وأفهمهم بأنه حصل من الامام يحيى على امتيازات عظيمة منها امتياز بالبحث والتنقيب فى اراضى اليمن واستغلال مناجم البترول فيها . وسرعان ما تألفت فى القاهرة شركة برأس مال كبير لاستغلال هذا الامتياز وقد نجح هذا المحتال فى تسلم أموال طائلة منها بحجة أنها تلزمه - كما هو معلوم فى مثل هذه الحالات - « لتزيت عجالات كثيرة » ولإقامة بعض الحفلات ولتقديم هدايا لجلالة الامام ورجال بلاطه ووزرائه. ثم جاء اليوم الذى اكتشفت فيه الأعيبه وفضائحهم وهكذا استقبل « القصر » (الذى فيه سجن صنعاء) ضيفا « فوق العادة » يختلف كل الاختلاف عن كل من فيه من « النزلاء »

وقد تركت المحكمة للمرة الأولى عند البدء فى محاكمة هذا النصاب أسلوبها العادى وسارت على طريقة اخرى تماثل الطرق المستعملة فى المحاكم الأوروبية . وقد فكر القضاة أيضا فى السماح للأوروبيين المقيمين فى صنعاء بحضور هذه المحاكمة . ولكن راغب بك اخبرنى بأن بعض رؤساء الدين اعترضوا على ذلك لان المسألة خاصة بمحاكمة أحد المسلمين .

أما المحاكمة وجميع ما حدث فى الجلسة ونص الحكم فقد نشر كله فى الجريدة التى تصدر فى مدينة صنعاء .

ولكن كيف ذلك ... هل توجد جرائم فى اليمن ؟

حقا ان الشئ الوحيد الذى لم لاحظته فى العاصمة اليمنية والذى لم يخطر لى ببال هو انه تصدر بها جريدة . ولى العذر فى ذلك لان جريدة (الايمان) ان هى الا جريدة صغيرة (تصدر مؤقتا مرة فى الشهر) رغما من انها ساءت

من عمرها ثمان سنوات .

ولقد استطعت فيما بعد ان ارى بدهشة عظيمة في (مفرج) عامل صنعاء اللطيف المزدحم بالزوار العدد الأخير من هذه الجريدة اليمنية . وكان هذا البهو الكبير مكتظا بجمهور من السادة الاشراف والاعيان الذين كانوا مضطجعين فوق الوسائد المصفوفة حول جدرانها وكل منهم يحمل معه مبسمة وحزمة صغيرة من اوراق (القات) . وكانت ترى فوق المائدة الواطئة التي كانت تتوسط المكان عدة ترجيلات مكركرة تتجه بخراطيمها الجلدية الطويلة المتعددة الألوان الى كل الجهات . وكانت احداها المزدانة بشرابات حمراء كثيرة ولا يقل طول خرطومها عن الخمسة الامتار تحمل الدخان الى ابعد ركن من اركان المفرج .

اما الشخص الذي كان يتحدث أكثر من غيره في هذا الجمع والذي كان يقف في اثناء الكلام وقفات صغيرة ريثما يبصق من آن لآخر في المبصقة النحاسية فانه كان قاضياً من قضاة اليمن وكان يغمغم في حديثه بصوت غير مفهوم . ترى هل يحدث هذا من مضغ القات ؟

لقد كان الرجل يحدث الحاضرين عن السياسة الانجليزية تجاه مسألة الاماكن المقدسة ولكني كنت في أثناء هذا الحديث في شغل عنه وعن حديثه بالنظر في صفحات (جريدة الايمان) الاربعة التي كانت حروفها الزخرفية تلهيني وتسبب لي الحيرة التي يحس بها الاميون تجاه اية كتابة . على اني استطعت أن افهم بفضل بعض من كانوا جالسين الى جانبي ان مقالها الافتتاحي كان تلخيصا للموقف الدولي الذي كانت تليه (الحوادث المحلية) بما فيها من مقابلات الامام واخبار تعيينات الموظفين وتنقلاتهم وترقياتهم ثم الاشارة الى قدوم القادمين وسفر المسافرين من كبار الشخصيات وذوى الحيثية ثم « الوفيات » ثم تلى ذلك كله اخبار بعض (الحوادث السوداء)

اما الاشتراك السنوي في هذه الجريدة فهو ريان في اليمن وما يقرب

من نصف جنيه انجليزى فى خارج البلاد . وتطبع جريدة (الايمان) فى
المطبعة الوحيدة الموجودة فى اليمن وهى مطبعة صغيرة كان قد أنشأها
الأتراك فى أيام حكمهم للبلاد . ومدير الجريدة ومحررها المسئول هو
« القاضى عبد الكريم احمد مطهر » الذى هو فى الوقت نفسه وزير العدل
فى الحكومة اليمنية .

ومن المحتمل كثيرا ان لا تتاح للحكومة اليمنية الفرصة قريبا لا نشاء
ادارة للرقابة على الصحف فى اليمن !!

احمد سيف الاسلام

اهتم الامامى يحيى اهتماما كبيرا بايجاد ذرية كبيرة فله اليوم اربعة عشر ولدا ذكرا وهذا ليس معناه انه لم يرزق اناثا ولكن لم تجر العادة بأن يتحدث الانسان في اليمن عن النساء لان هذا أمر غير مرغوب فيه وربما كان في ذلك شئ من المبالغة ولكنى أظن أننا نحن الغربيين نبالغ كثيرا في تحدثنا أكثر مما يجب عن النساء .

هذا وان رواء الاخبار والمحدثين الذين يكثر عددهم في « المفارج » اليمنية والذين لا يخلو عنهم مجلس يخفضون أصواتهم اذا حدثوك عن حريم الملك يحيى . وقد جرت عادة الامام عندما يريد التزوج من زوجة جديدة أن يسرع بطلاق احدى زوجاته الاخريات لكي لا يخالف نصوص الشريعة الاسلامية التي لا تبيح الزواج من اكثر من اربع نساء . أما مطلقة « المتوكل على الله » فيجب أن تبقى في خدرها بقية أبام حياتها بدون ان تتزوج من غيره على أن الامام لم يستعمل حقه في الطلاق على اطلاقه كما يفعل ابن السعوذ الذي تزوج من نساء كثيرات رغبة منه في مصاهرة اكبر عدد من القبائل العربية الكبيرة الشأن وذلك لغرض سياسى رمى اليه وهو تقوية مركزه وشد ازره بهذه المصاهرات .

وفي داخل نطاق « المقام » على مقربة من المقصف الذى يجلس فيه الامام لمشاهدة العرض العسكرى يقوم « برج الامراء » وهو بناء عجيب الشكل كله شرفات ومصاطب ظريفة وقد أعد لاقامة ابناء الامام الذين ليس لهم مسكن ثابت في العاصمة . وقد اقام فيه الامير احمد عند عودته الاخيرة الى صنعاء .

أما عودة ابن الامام البكر فقد كانت حادثاً اهتم به الرأي العام اليمني كل الاهتمام وكان حديث الخاصة والعامة على السواء لان سيف الاسلام احمد يعيش من عدة سنوات بعيداً عن العاصمة في الشمال في مدن حربه قاسيه احتفظت فيها القبائل الزيدية بعاداتها القديمة كامله غير منقوصة فاقام اولاً في «حجة» التي تتكون من عدد من المباني الحصينة وتشرف من ارتفاع الف وخمسمائة متر على منحدرات الهضبة فوق مرتفع مخروط الشكل . ويمكن القول بان هذه المدينة الحصينة ذات الالهية السياسية والحربية ماهي الا حصن كبير وتبدو الحياة فيها كأنها الحياة بداخل احدى الشكنات وعندما يحضر احد الاجانب لزيارتها ويقرب من بابها ينفخ العساكر في ابواقهم ولا تفتح مصاريع ابوابها الا عندما تعان القلعة بدق الطبول صدور التصريح بالدخول

انتقل الامير احمد من هذه المدينة الى (صعدة) وهي ايضاً مركز عظيم ذو أهمية حربية وتجارية عظمى نظراً لوقوعها على حدود نجد وقد كان الامير مغتبطاً باقامته بين رجال حاشد وباجل الاقوياء الشكيمة الشداد المراس الذين تتألف منهم قبيلة من اعظم القبائل الزيدية وأكثرها عدداً تستطيع أن تقدم اليمن في أوقات الحرب خمسين الفا من الجنود الاقوياء والمحاربين الشجعان .

والامير احمد رجل قوى الشكيمة شديد البأس ومحارب من الدرجة الأولى يحب النضال ويميل الى القتال . وعندما أريد اخضاع قبائل الزرانيق الشائرة في عام ١٩٢٨ اشتد غضبه عندما سمع ان الامام قد عين غيره لقيادة الحملة في أول الأمر وما زال يلح على أبيه حتى ولاه القيادة . وكان المشروع صعباً والمهمة ثقيلة لان قبيلة الزرانيق شديدة المراس قاوم رجالها الاتراك زمناً طويلاً وكانوا لتعصبهم لمذهبهم الشافعي يرفضون مد أيديهم لمصافحة الزيديين سكان الهضاب والمرتفعات . كما أن وجودهم في (بيت الفقيه) كان يعرقل المواصلات بين الحديدة ومخا فضلاً عن أن اقامتهم على الساحل كانت تشجعهم على أن يكونوا في أغلب الاحيان من قطاع الطرق والقرصان .

قاد الامير أحمد رجاله الجبلين في ذلك السهل المحرق ضد قبائل الزرائق المتوحشة ورجالها الانصاف العراة الذين تعودوا احتمال العواصف الرملية والقتال في الاراضي الجرداء القاحلة واستطاع بعد قتال عنيف معهم أن يقهرهم ويبدد شملهم وأن يقود رجاله الى النصر وعاد الى صنعاء ظافرا منصورا واستقبل عند عودته استقبالا منقطع النظير واحتفل به احتفالا كبيرا لم تشهد عاصمة اليمن مثله على أنه لم يبق فيها طويلا . وقد قيل اذ ذاك بأنه قام بينه وبين والده شيء من سوء التفاهم كان من الممكن ان يتفاهم ويترادف اثناء الخلاف مع الحجاز حول طريقة الدفاع عن البلاد التي ارتأى الامام السير عليها وبسبب الامتيازات الكثيرة التي منحت للملك ابن السعود .

واذا كان حقاً ما قيل عن هذا الخلاف وأغاب الظن انه انتهى الآن ولم يبق له اثر لان الامام قد حدثني عن ابنه الاكبر بكلمات تنم عن عظيم حبه له وعن اعجابه بشجاعته وبشدة اهتمامه بأمره لانه هو المنتظر أن يخلفه على عرش اليمن وعلى أمانة الزيديين .

وفي الحقي ان الزيدون يحجبون نظام « ولايه العرش » ولا يعترفون به ولا عهد لهم به من قبل لانهم يختارون ملوكهم ويتخبونه . ويحمل الامير أحمد لقب (سيف الاسلام) كبقية اخوته العديدين كالا مير حسن وكالا ميرين علي وعبدالله اللذين ربما كانا أكثرهم حركة ونشاطا وأوسعهم شهرة بين سكان صنعاء وكاطفاين محسن واسماعيل اللذين لا يزالان يلعبان فوق ركبتى ابيهما الوقور الحنون .

ولا يبدو أن الامام يفضل بعض اولاده على بعض وانما كان يقال فيما مضى انه كان كثير الاهتمام بالا مير محمد ثاني النجاشه وأنه كان يؤثره على اخوته وكان هذا الامير دمث الخلق متوقد الذكاء نشيطا مؤدبا واسع الاطلاع وكان قد ارسله والده في عام ١٩٢٨ الى مدينة روما لرد الزيارة الرسمية التي قامت بها البعثة الايطالية لصنعاء . وعندما غرق في مياه الحديدة وهو يحاول انقاذ صديق له سقط في الماء وكان على وشك الغرق رثاه الامام يحيى بقصيدة عصماء تفيض حزنا وأسى . على انه لا يلفت النظر بين ابناء الامام الموجودين في قيد الحياة

أحد أكثر من الأمير أحمد . وليس صحيحاً ما يذيعه البعض من أن هذا الأمير ماهو الاجندى شرس سية الخلق قاسى القلب . ومن المحتمل أنه كان لصلابته فى الماضى بعد المظاهر ولكنه بمضى الزمن ومع تقدمه فى السن بعد أن أربى على الأربعين قد تهذبت أخلاقه وتغير الكثير من طباعه . وهو يهتم كل الاهتمام بالمسائل الحربية التى يكرس لها معظم أوقاته والكثير من جهده وتفكيره . هذا على أنه لا يمكن القول بأن أفكاره ليست منصرفة الى غيرها من المسائل وربما كان ينقصه بعض « الاحساس بالعالم » الذى يقال بأن أخاه محمداً كان قد اكتسبه بسفره الى إيطاليا لانه رغم كل ما قيل فيه رجل واسع الادراك متوقد الذهن حاضر البديهة اذ انه عندما حضر الى اليمن العالم الاثرى الشهير « كارل راتينس » لاتمام اكتشافاته الاثرية بالوسائل القليلة التى كانت بين يديه ربما كان الأمير أحمد هو اليمنى الوحيد الذى تتبع اعماله باهتمام . ثم أنه أخذ بعد ذلك فى استكمال البحوث العالم النمساوى فى « غيان » وفى « نخلة » بنفسه حتى كشف عن أشياء عظيمة القيمة منها تمثال حميرى من البرونز جميل الشكل متقن الصنعة الى حد بعيد .

ولما عاد الى صنعاء ترأس اللجنة التى شكلت لادخال الاصلاحات على نظام الحكم فى اليمن . وقد وضعت هذه اللجنة الاسس لنوع من الدساتير سوف يشكل بمقتضاه عدد من « المجالس » فى البلاد ولسوف يكون فى اليمن « مجلس سياسى » لبحث الشؤون الداخلية والخارجية « ومجلس حربى » يضم كبار قواد الجيش « ومجلس تشريعى » يتألف من العلماء الزيود والشوافع على السواء للنظر فى المسائل القضائية . وسوف توضع ميزانية للدولة وسيعاد تنظيم المحاكم الشرعية بانشاء محكمة للاستئناف ومحكمة للنقض والابرام كما ستنشأ لجنة لتنفيذ القوانين . وقد تقرر أيضاً إعادة النظر فى كافة الوظائف الادارية وابعاد الموظفين المرتشين وغير الاكفاء الذين يتولونها وزيادة كفاية الجيش ومقدرته بفرض الخدمة الاجبارية على كافة أفراد الشعب وبالحصول على أسلحة حديثة ونشر التعليم واذاعته بين جميع طبقات الأمة وتنظيم الادارة المالية وتسهيل المواصلات واصلاح الطرق واتخاذ التدابير اللازمة للقيام باحصاء عام لسكان البلاد

ولقد كان من شأن عودة سيف الاسلام أحمد الى صنعاء ومسألة ادخال
الاصلاحات المقترحة ان جعلت « السادة » يفرضون كل الفروض فمن قائل
أن الامام قد لعب من كثرة مشاغله وانه يفكر في قسط أوفر من الراحة في
قصره الجديد الذي شيده أخيراً في « الروضة » ومن قائل أن الامام يرمى الى
أن ينقل تدريجياً الى يدى أكبر ابنائه ادارة البلاد وهكذا يتيح الفرصة لسيف
الاسلام أحمد للقيام بتجاربه وتقوية مركزه وتثبيت هيئته في النفوس ولكي
يعده مستقبل عظيم ينتظره

ولما مرض الامام نصح للرؤساء الزيديين الذين يتحتم أخذ آرائهم فيمن
يخلف الامام - بان ينتخبوا الامير أحمد فكان منهم واحد أجاب يقوله : انه
لم يحن الوقت، بعد للكلام في مثل ذلك . وقد أثبتت الحوادث ان ذلك الرجل
الذي قال ذلك كان على حق فيما قال . على أن الرؤساء والعلماء الآخرين وافقوا
على انتخاب الامير أحمد اماماً لليمن ولكنهم اضافوا أحد التحفظات بقولهم
« اذا اثبت استحقاقه وجدارته لهذا المركز »

وما لاشك فيه أن هذا التعيين له قيمة نسبية لا غير وعلى الأخص من
الوجهة القانونية لانه يوجد في الوقت المناسب مرشحون آخرون من المحتمل
أن يظهروا بعد موت الامام ولست أدري اذا كان هناك من انجال الامام
الآخرين من يتطلع الى هذه الخلافة فان البعض منهم لا تنقصهم الشجاعة
والكفاية والذكاء وقد استطاعوا أن ينالوا ثقة الشعب وعطفه ومحبه
باخلاصهم الكريمة وحسن سلوكهم وأدبهم وكرمهم ولطف معشرهم وبتدخلهم
في كثير من الظروف لدى والدهم لمصلحة الكثيرين من مواطنيهم من كافة
الطبقات .

هذا فضلاً عن ان اليمن لا تنقصه الاسر الشريفة العريقة في النسب والتي
تفخر بانتسابها الى بن أبي طالب وفاطمة والتي كان من أفرادها بعض ملوك الزيديين
والتي لا يزال في مقدورها أن تدم مملكة الزيديين بملوك آخرين . وصفوة القول
أنه يوجد في اليمن أو سوف يوجد حتماً من يتوق لخلافة الامام على عرش
اليمن ومنافسة الامير أحمد . وتلك السنة اليمينية في الوقت الحاضر أسماء

أكثر من شخص قد يرشحون أنفسهم لهذا المركز . ومن العجيب أن يتحدث الناس عن هذا الانتخاب كما لو كانوا يتحدثون عن أمر أكيد سوف يتم اليوم أو غدا أو بعد غد على أن الامام يحيى لا يزال - والله الحمد - قوى البنية أخضر العود صحيح الجسم موفور العافية .

ولما عاد سيف الاسلام أحمد الى العاصمة أخذ يشمل بعنايته جيش البلاد الذى يعتقد أن فيه أقوى دعامة للامامة وامتن ضمانه للاستقلال . رقد أحبه الجنود وضباط الجيش وقواده ولم يكن ذلك لشجاعته فحسب بل لأنه أوحى إلى أبيه بزيادة مرتبات الجنود من خمسة ريالآت الى ستة فى الشهر ولأنه أخذ يهتم بمسألة تحسين مرتبات الموظفين . على أن التعليم والتسليح قد بقيا بعد حوادث عام ١٩٣٤ كما كانا قبلها دون تغيير أو تعديل .

ولم يكن للخلاف مع الحجاز عاقبة وخيمة أو نهاية محزنة والله الحمد ولكنه أظهر بجلاء أن البلد الذى يريد أن يعيش حرا مستقلا مرهوب الجانب لا يجب ان يبقى دائما كما هو الآن . أو كما كان دائما فان التعصب الوهابى رغم أنه يسبب الكثير من المصاعب للحكومة السعودية ويقيدها ببعض القيود لم يمنع الملك ابن السعود من تمهيد الطرق فى قلب الصحراء ومن مدجيوشه بالوسائل والآلات الميكانيكية الحديثة . والعساكر اليمنيون من خيرة الجنود وأكثرتهم شجاعة ويمتازون بفضيلة المقاومة وسرعة السير والصبر على احتمال المشقة ولكن تسليحهم لا يزال الى اليوم أوليا وفي حاجة الى الاستكمال بينما وصلت الجيوش السعودية الى الحديثة فى اثناء الخلاف الاخير فى ثمانمائة سيارة مسلحة وكانت تحت ايديها دبابات ضخمة وسيارات مصفحة ومتراليوزات ميكانيكية . وهذه كلها اشياء تدعو الى النظر والتبصر ويجب أن تكون فيها عبرة وموعظة !!

والمن ولو أنه لا يزال فى اعتكافه وعزلاته عن العالم الخارجى الا أنه يمكن القول بان الافكار الحديثة بدأت فى التغلغل فيه وليس من السهل فى هيئة اجتماعية مثل هذه تحديد الراى العام واتجاهاته بدقة ولكن يبدو للانسان أنه لا يكون مخطئا اذا ما أكد أن عقيدة الجمود المقدسة ليست الآن راسخة كما كانت فى ضمير الشعب اليمنى .

ولقد كان من حكمة الامام وبعد نظره العمل على طمأنينة الذين من الممكن تسميتهم باسم المحافظين أى الزيود المتعصبين الذين لا يرون فى كل عمل من اعمال التجديد الا الخطر والخراب. ولكن يوجد الآن من أصبح يرى الخطر كل الخطر فى عدم القيام بهذا التجديد فى أسرع وقت وفى بقاء اليمن ملقيا مراسيه فى الماضى مقيدا باغلال تقاليد القديمة كما يوجد الآن من أصبحوا يقولون فى صراحة أنه قد حانت الساعة لإبدال التعصب الدينى بشىء آخر يختلف عنه تمام الاختلاف وبأسطورة أخرى جديدة بأن تقوى البلاد وتسير بها نحو مقدرات جديدة واغراض أخرى نبيلة ومستقبل باهر عظيم .

ومما لاشك فيه أن اليمنيين حتى عندما يفتخرون بانهم أحرار من كل قيد يرفضون باباء وشتم التشبه بالعالم الخارجى أى عالم غير المسلمين أو التطلع لشعوب أوربا وأمريكا كما يتطلعون للشعوب العربية . وليس هذا رأى سواد الشعب بل هو رأى الذين يشعرون برغبة شديدة فى التقدم والارتقاء تلك الرغبة التى تبدو فيما يقومون به من أعمال عظيمة وفى تبدل افكارهم وعاداتهم تبديلا أكيدا ولو أنه بطيء وهذا ما يجعلهم فى غاية الحيرة والقلق والتردد .

وفى الحق ان الاجانب قد وضعوا أقدامهم فى البلاد العربية الاخرى وحتى الحجاز نفسه قد أصبح يفكر فى منح امتيازات باستخراج البترول من بلاده وبانشاء طرق للسيارات لجماعة من الممولين الامريكىين على أن اليمن يستطيع ان يفخر بأنه بقى حرا من أى نوع من أنواع التبعية حتى ولو كانت تبعية مقنعة وبأنه لم يقبل فى داخل بلاده أمثال لورنس أو فيلبى وهذا فى الحق شىء جميل ولكنه لا يحل المشكلة فى شىء .

وبعيش الوهابيون فى صحراوات شاسعة جرداء كثيرة الأقدار ولكنهم عندما يتحدثون عن المسافة بين اية مدينة من مدنها وأخرى يذكرّون الساعات التى تستغرقها السيارات فى السير بين المدينّتين . أما اليمنيون الذين يعيشون فى بلاد خصبة التربة ذات ثروة واسعة ويمكّنهم أن يتحدثوا اليك عن بلادهم التى فيها الذهب والفضة والنحاس والحديد والاحجار الكريمة

والبتروول والاملاح المعدنية والطلق والبلور الصخرى وغير ذلك فانك اذا
ماسألهم عن الزمن الذى يقطعه المسافر من صنعاء الى تلك الاماكن التى توجد بها
تلك الاشياء النفيسة قدروا لك المسافة بالايام التى تنقضى فى السفر على
ظهور الابل !

ولقد كان الاخرى باليمن الذى يسير وحده بدون اية وصاية من احد
ومن أى نوع أن يصير بسبب ثروته العظيمة واستقلاله التام عاملا نشيطا
نافعا من عوامل الاقتصاد العالمى . وقد وكل الزيد الامام يحيى فى عام
١٩٠٤ وألقوا على كاهله واجبا عظيما قام به خير قيام على أن هناك واجبا
آخر لا يقل اهمية أو صعوبة عن الواجب الاول وهذا الواجب سوف يلقى على
عاتق خلفه العظيم « سيف الاسلام احمد » للقيام به وأكبر الظن أنه سوف
يكون عند حسن ظن الجميع به وما ذلك عليه بعزير

مصيف الامام يحيى

عندما يبرح الامام عاصمة ملكه لقضاء شطر من أيام الصيف في قصره المملكى في « حجة » ينتقل معه كل رجال بلاطه وحاشيته ويأخذون في السير برفقته ويخرج هذا الموكب اللجب من باب كبير مزين بكثير من الزخارف والتخاريم يفتح في سور صنعاء — في جلبة وضوضاء تصم الآذان اذ ينفخ عساكر الحرس من فوق الاسوار في أبواقهم وبوقعون نشيدا لا بأس به فيه الشيء الكثير من انغام نشيد رواية « عابدة » الشهير بينما تصيح الجماهير صياحا عاليا ويأخذ رجال « العكفة » (الحرس الخاص) في اثناء رقصاتهم التوقيعية في الشاد الاغانى والقصائد في مدح مولاهم العظيم بكل ما أوتوا في أصواتهم وحناجرهم من قوة .

وتتقدم هذا الموكب عربية المليك وهى تترنج في سيرها وتتأيل ذات اليمين وذات الشمال فوق الطرقات الغير المستوية بينما يسير على كلا الجانبين الأمراء والوزراء واعيان البلاد وهم ممتطون جيادهم العربية الاصيلة . كما يسرع عساكر الحرس بالجرى على أقدامهم ويلى ذلك حشد كبير من البغال المطهمة المسرجة بسروج حمراء وخضراء هى « ركائب » السادة وكبار الموظفين والاعيان والكتاب ثم يسير بعد ذلك رتل طويل من حمير الخدم تحمل على ظهورها النرجيلات الفخمة المزركشة ثم يلى ذلك كله عدد من الجمال المحملة ويسير فى اثر كل هؤلاء جمهور غفير لاعد له ولا حصر .

هذا وتكون قد قامت من فناء « القصر » فى الليلة السابقة قافلة ضخمة

عزلت شخصياتها الهامة في مقصورات (الحريم) السرية المحجوبة . وهؤلاء هن نساء محجيات لا تصل اليهن الانظار وأطفال صغار يكون بعد ان انقطع عليهم لذيق الرقاد وعدد من الجوارى المشاغبات من سمرات وبيضاوات وكلهن عاليات الصوت شغوفات بالجدل محبات للخصام . كما تكون الجمال قد نقلت عددا لا يستهان به من الحقائق والصناديق المنقوشة بنقوش هندسية وزخرفية متعددة الالوان تبهر العيون وتحير الالباب .

وقد جرت نساء (المقام) على نظام شديد الصرامة في معيشتهن فهن يقرن دائما في خدورهن ولا يفارقن مساكنهن اذ أنه قد خطر عليهن كل اتصال بالعالم الخارجى وهن لازلن في التاسعة أو العاشرة من أعمارهن . وعندما يضطرن للسفر أو الانتقال من مكان الى مكان يقمن برحلاتهن فى اثناء الليل وفى غير الليالى المقمرة ويسرن فى حبيطة وحذر كى لا يراهن انسان كما لو كن مقبلات على ارتكاب احدى الحرمات .

ولكن ألا يكفى القناع الكشيف الذى يغطين به وجوههن ؟

أما أسفار الامام فانها تكون على العكس من ذلك تماما فى وضوح النهار لكى تتاح الفرصة للشعب اليمنى للابتهاج والفرح بمليكه ولكى يحظى بشرف توديعه وهو ذاهب لقضاء بعض الوقت للراحة والاستجمام وتبديل الهواء فى مصيفه الجميل .

وصنعاء مدينة ذات مناخ معتدل وتمتاز عن غيرها من المدن الاخرى بطقس جميل فى كل فصل من فصول السنه ولا يعرف اهلها درجة الحرارة المرتفعة التى تتلظى فيها بلاد تهامة المحرقة . وتقع العاصمة اليمنية على ارتفاع خمسين وثلثمائة وألئى متر عن سطح البحر وتبعد بمقدار خمسة عشر درجة عن خط الاستواء وهى غنية بما فيها من المزروعات الياينة فأبى سار الانسان فيها أو حولها لا تقع عيناه الا على حدائق غناء ومروج فيحاء وبساتين نضرة كما أن المياه التى تجرى تحت أراضيها غزيرة وارضاها ومناخها يصلحان لكل

نوع من أنواع الزراعة . وفي الحق انه ليست هناك أية حاجة تدعو الانسان لان يهجر في فصل الصيف هذه المدينة المريحة التي تنقضى الحياة فيها على أحسن ما تكون والتي فيها كل ما يجلب البهجة والسرور والانشراح ولكن ماذا نقول والتصنيف عادة قديمة ونظام جرى عليه الناس من قديم الزمان ؟

واذا كانت هذه المدينة لطيفة فاتمة فان ضواحيها ألطف وأفتح وفيها سماحة وبهجة يعجز القلم عن وصفها ولا أدري اذا كان شعراء اليمن قد شبهوا صنعاء بما حولها من سهول خضراء ومروج يانعة بلؤلؤه ثمينة تطل من أصدافها واذا كان قد فاتهم هذا التشبيه فان في هذا ما يدهش كل الدهشة اذ أنه في ذلك الزورق الأخضر العظيم المحوط بالمرتفعات والهضاب العالية يبدو عدد من القرى الضاحكة الباسمة التي يستهوى منظرها الالباب ومن هذه القرى قرية « الوادي » (١) التي كان يقصدها في العهود الماضية أئمة اليمن لقضاء شطر من أيام الصيف في ربوعها وتبعد هذه القرية اثني عشر كيلو مترا عن العاصمة الى جهة الغرب وكان لهم فيها قصر نفخ (٢) فسيح الجنبات صعب المرتقى شيد فوق أكمة عالية من الصخور تقف بمفردها وسط السهل كأنها بناء فرعونى عظيم وكانوا يمتعون أنفسهم في هذا القصر بمشاهدة السهول الخضراء والمرتفعات العالية التي يظهر فيها تنضيد الأحجار وتصنيفها فوق بعضها والغابات الشاسعة الجميلة التي يسهل فيها صيد الأرانب البرية والحجلان كما ترى منه الحدائق الفخمة والحقول الناضرة الممتدة على طول جنبات ذلك الوادي الفياح ولكن حدث أن تسلق بعض الثوار في أحد الأيام أسوار ذلك الحصن الصخري المنيع وقتلوا الامام غيلة (٣).

(١) هو وادي ظهر

(٢) وقد اصلح هذا القصر وجده من جديد حضرة صاحب الخلافة الامام يحيى ملك اليمن

(٣) هو الامام الناصر لدين الله عبد الله بن الحسن وذلك في سنة ١٢٥٤ هـ

ومن ذلك الوقت صرف النظر عن التصنيف فيه وكان هذا آخر عهده بملوك اليمن فلم يطره اليوم غير البوم والغربان ولم يلبث أن بدأ في التهدم والانحيار حتى لم يبق فيه في الوقت الحاضر سوى جدران العظيمة القائمة التي لا تزال فتحات نوافذها تشعر الناظر اليها بالرهبة وتدخل على قلبه الانقباض ويخيل أنها لا تزال باقية للتذكير بذلك الحادث المشؤم الذي وقع لذلك الامام المسكين !

انتقل مصيف أئمة اليمن بعد ذلك إلى « حجة » وهي بلدة غنية بمياهها وزرعها . وترتفع مساكنها فوق سفوح الهضاب اللطيفة التي اكتست كلها بالمرروعات . ولكن ترى أى شيء لا تنبته بساتين « حجة » الواسعة ؟

انها تنبت الفواكه على اختلاف أنواعها والخضر والأعشاب ذات الرائحة العطرية والأزهار من كل نوع ومن كل لون . وفي فصول الازهار التي تستمر هنا وقتاً أطول من أى مكان آخر تزين أشجار اللوز والخوخ والبرتقال والنارنج والمشمش مناظر الريف بألوان حلوة فاتنة على أن أشهر ما تنتجه « حجة » هو العنب الحلو اللذيذ الطعم الذي لا يمكن أن يضارعه عنب اخر في حلاوته والذي أشار اليه العلامة العربي (ابن سينا) في كتابه الشهير في الطب . ويوجد في حجة من هذا العنب عشرون صنفاً مختلفة الطعم والشكل واللون تنضج في عدة فترات من السنة حتى لتكاد لا تحتفى عناقيد هذا العنب الجميلة من الموائد اليمنية في أى فصل من فصول السنة . والى هنا يأتى يهود صنعاء ليأخذوا مؤوتهم من النبيذ الذي هو مشروبهم التقليدي في احتفالاتهم الرسمية التي يقيمونها في أيام السبت ذلك النبيذ الذي غالباً ما يعطره هؤلاء التعساء بماء الورد !

والقصر الملكي في « حجة » قصر واسع الجنبات فسيح الأرجاء مريح

للاغاية فيه ما تشتهيهِ الأنفُس ويلذ الأعين ومع ذلك فانه يغاب على الظن أنه لن يكون له بعد حين شرف استقبال (المتوكل على الله) وقد يحدث أيضا لاقصوَر اليمينية ما يحدث لنساء اليمن عندما يفقدن عطف مولاهن ويحْدن أنفسهن قد استبدلن بمحظيات جديداً فقد أمر جلالة الامام يحيى بتشديد قصر آخر ليسترىح فيه في (الروضة) على بعد عشرين كيلومترا الى شمال صنعاء على احدى الطرق التي تسلكها القوافل المسافرة إلى مكة .

ولست الروضة قرية من القرى بل هي مدينة كبيرة بها مسجد عظيم لا يقل جمالا وفخامة عن أجمل مساجد صنعاء وبها جبانة كبيرة تشغل بقبورها ساحة من أكبر الساحات يستطيع الانسان في طرقاتها الفسيحة التي تحف بها الحدائق والمتنزهات من كلا الجانبين أن يتنزه أجمل النزه والطفها وأن يسير فيها الساعات الطوال دون أن يشعر بالملل أو التعب نظرا لجمال مناظرها وحسن تنسيقها فهي أشبه ماتكون (بالشانزليريه) في باريس أو (الأونتردن لندن) في برلين . على أن هذه المدينة الجميلة قد تهدم جانب كبير من مساكنها بفعل القنابل التي أطلقها الأتراك عليها أثناء المعارك التي دارت رحاها في اليمن بينهم وبين الثوار اليمنيين .

ومما يسترعى النظر حقا أن يمضي كل هذا الوقت دون أن يفكر انسان في ضرورة إعادة هذه الابنية المتهدمة سيرتها الأولى أو في اخلاء هذه المجازر البشرية مما يكون قد وقع تحتها من الجثث وأشلاء الموتى ولكن (الروضة) التي تزدهر بزروعها وبمحركاتها التجارية الواسعة في منتجاتها تزداد اتساعا كل يوم بما يشيد فيها من المباني والمنشآت ويمكنها أن تفخر وتتيه على غيرها من مدائن اليمن بتلك الجوهرة المعمارية الفريدة التي هي قصر الملك الصيفي الجديد .

وسواء أصبح أو لم يصح ما قيل من أن الامام يحيى قد قرر أن يسمح لنفسه بقسط أوسع من الراحة وأن يقضى معظم أوقات السنة في هذا القصر

المنيف فان العناية العظيمة التي كان يباشر بها الاعمال النهائية في هذا القصر من شأنها أن تبعث على الظن بأن (قصر الروضة) سوف يكون له شأن عظيم وأنه قد أعد لغرض أسمى وواجب أجل بكثير من الواجب الذي خصص له الى اليوم كمقر صيفي للمليك .

ويقوم هذا القصر الفخم العظيم البالغ الزخرف والمتناهي التنسيق فوق احدى الرابي الخضراء بين البساتين النضرة والحقول اليانعة التي خصصت فيها ساحتان هائلتان لزراعة الكروم والقنات والفواكه والازهار ويحتوى هذا القصر على عدد كبير من الابهاء الجميلة والايوانات الفسيحة نسقت كلها أحسن تنسيق وعلى شرفات متعددة وهو شاهخ البنيان عظيم الارتفاع لدرجة أنه لكي يصل الانسان الى أعلاه يجب عليه أن يصعد مايزيد على المائة سلم فاذا ما صعداها وبلغ قمته فانه يرى - وبالعجب - مشهدا من أجل المشاهد وأبرعها واروعها .

ويشتغل العمال في الوقت الحاضر ومعظمهم من اليهود بهمة لا تعرف الكلل لانهائه والفراغ من زخرفته في أسرع وقت ممكن . وقد حفروا في أعلى واجهته بعض آيات من و القرآن ، كتبت بخط عربي جميل - كما زينوا نوافذه وشرفاته بزخارف ونقوش بديعة من الجص والرخام الملون الجميل .

والعجيب في قصر الروضة الملكى والشئ الذى يدعو الى الدهشة انما هو (المصعد) الذى وضع فيه . ويمكن القول بأنه يوجد الان مصعد فى اليمن . والعمال الايطاليون المقيمون فى اليمن هم الذين جلبوا هذه الآلة الحديثة الصاخبة وشيدوا لها (كابينة) جميلة أنيقة تليق بقصر ملكى مثل (قصر الروضة) وأعدوا لها كل لوازمها حتى لم يبق الا المحرك (الموتور) لكي تقوم بوظيفتها ولكن عندما عرف الامام يحيى ثمن هذا المحرك وما

يتكلفه نقله الى القصر من المتاعب والنفقات لم يشأ أن يسمع كلمة واحدة عنه وقال .

ولكن لم هذا المحرك ، وما فائدته ، وهل ليس عنه من بد ؟ ربما ظن الناس أن البلاد اليمنية تنقصها السواعد القوية !!

وهكذا أصبح مصعد القصر الملكي في الروضة يرتفع وينخفض ويعلو ويهبط بواسطة عجلة كبيرة يديرها عساكر الحرس بسواعدهم . وهم بحمد الله كثيرون!

نبأ من سبأ!!

في شرق صنعاء وعلى مسافة خمسة أيام منها على ظهور الابل تمتد احدى المناطق ذات الاهمية التاريخية والاثريّة العظيمة . وتكاد هذه المنطقة تكون مطمورة تحت الاتربة الراسبة وفيها أطلال « سبأ » تلك المدينة العجيبة التي كانت تسكنها الملكة بلقيس التي كانت زوجة (سيدنا سليمان) عليه السلام .

ونحن مدينون بذلك القليل الذي نعرفه عن مدينة « سبأ » التي يقال لها أيضا « مارب » لثلاثة من العلماء الباحثين الذين استطاعوا التوغل في قلب بلاد العرب والوصول الى هذه المنطقة وجمعوا من اطلالها بعض كتابات منقوشة على الحجارة . وهؤلاء الثلاثة هم « آرنو » الذي ذهب اليها في عام ١٨٤٣ م « وهالقي » الذي كان بها في عام ١٨٦٩ ثم « جليزر » الذي وصل الى هذه الاطلال في عام ١٨٨٠ ولم يستطع اوروبى واحد بعد هؤلاء الثلاثة ان يجوس خلال هذه الديار . ولا تزال « سبأ » الى يومنا هذا تحتفظ بسرها السكين العجيب كاملا غير منقوص .

وقد شيد اهل « سبأ » في واد كبير غرب مدينتهم سداً عظيماً كان يكبح جماح مياه السيول والانهار وكانوا يروون من هذه المياه اراضيهم التي صارت عظيمة الخصوبة وكانوا مشهورين بالتجار في العطور التي كانت تنتجها بلادهم والبلاد الحبشية التي كانوا يذهبون اليها في قوارب مصنوعة من الجلود وكانت لهم معابد وهياكل فاخرة وقصور بديعة شاهقة متينة البنيان قد ازدانت جدرانها وأبوابها واسقفها بالعاج والمعادن النفيسة والاحجار الكريمة وكانوا يملكون ريشا وامتعة واثاثات من ذهب وفضة

ولكن اهل « سبأ » كانوا كفرة مشركين يعبدون الشمس والقمر والشور والغزال من دون الله ولذلك عاقبهم الله على كفرهم بهدم سد مدينتهم الذي اغرقها وشتت شمل سكانها .

وتحطيم سد (سبأ) حادث تاريخي ورد ذكره في « القرآن » وأمتلات به كل الاساطير القديمة التي بقيت في بلاد العرب عن مملكة « سبأ » . وليست لدى اليمنيين اية فكرة في الوقت الحاضر عن القاء ضوء على تلك الاطلال اليمنية الباقية من هذه المدينة الشهيرة أو امانة اللثام عن تاريخها ... (وهل يسمح مسلم صالح لنفسه أن يكشف ما أمر الله به ان يدفن ؟) ولا يوجد من بينهم من يرغب في تفسير هذه الكتابات والنقوش وحل رموزها لمعرفة حقيقة الماضي وكشف أسرارها ... أليست الاساطير أجل من التاريخ ؟

ولكن القليلين منهم الذين جرؤوا على الحفر في هذه المنطقة واستخراج بعض التماثيل هم من البدو الذين يبيعون هذه الأشياء للاجانب وهم مندھشون لتقدير هؤلاء لبضاعتهم كل هذا التقدير !

ولقد استطاع علماء الآثار الذين وصلوا الى « سبأ » بعد أن تعرضوا لأشد المخاطر - أن يجمعوا الشيء القليل وتمكن العالم (جليزر) من اقناع أحد أشرف مدينة (مارب) بأنه مسلم واتخذ منه دليلاً ومرشداً وسافر الاثنان من صنعاء الى ذلك الوادي الذي يجري بين جبلي نجم وخولان ووصلا بعد أربعة أيام الى وادي (شبوان) ثم استأنفا سيرهما في أحد الطرق الوعرة التي لا يمكن السير فيها الا على ظهور البغال والذي يخترق المقابر القديمة ووصلا بعد ثلاث ساعات الى مكان (المدينة السبئية) القديم

ولكن حدث في هذه الاثناء أن ذاع خبر سفر ذلك (الكافر) الى سبأ ولذلك قرر البدو قتله هو ومرشده ولما علم (جليزر) بعزمهم هذا اضطر للاختفاء في النهار والتنقل في ظلام الليل وقد استطاع في أثناء عودته بجهد

أن يرد اعتداء البدو المسلحين الذين كانوا متربصين له. ورغمما من كل هذه الصعوبات وحرمانه من أية آلة من الآلات الفنية استطاع العالم النسوى أن ينسخ ثمانمائة وخمسين مخطوطاً من المخطوطات النفيسة الأمر الذي يدلنا على مقدار الثروة الأثرية العظيمة في هذه المنطقة.

ولم يسمح الامام يحيى قط لأى أجنبي بالسفر إلى مدينة (سبأ) وقد أصدر أمره من عدة سنوات بعدم بيع العاديات منعاً باتاً. وقد حاول أحد العلماء من عهد بعيد السفر إلى (مارب) من حضرموت ولكنه قبض عليه وأبعد إلى خارج حدود البلاد كما صودرت عدة صناديق ملأى بقطع أثرية وتماثيل كان قد اشتراها عالم آخر من بعض البدو المقيمين في المناطق القريبة من هذه الأطلال القديمة.

وإذا ما سأل سائل عن سر هذه الشدة تنتحل له شتى الأسباب ويعتذر له بمختلف المعاذير فقد قال لى أحد العلماء المتقدمين في السن أنه تسكن في منطقة سبأ قبائل من البدو المتوحشين الذين يأكلون اللحوم النيئة وأشرف هذه القبائل ورؤساؤها يضطهدون القرويين المساكين ويلزمونهم بالعمل في حقولهم وبالقتال من أجلهم. وكثيراً ما يرسل الامام يحيى إليهم جمالات عسكرية لجباية العشور منهم ولذلك يرى من الحزم عدم التصريح للاجانب بالمغامرة بدخول تلك الأقاليم التي يسكنها قوم لا يعترفون بحكومة صنعاء اعترافاً جدياً ولا يدينون لها بالاخلاص وقد قال لى عالم آخر أن الامام يحيى لا يرى أية قيمة لهذه الاحجار القديمة ولكنه لما يرى اهتمامكم العظيم بها اتم معاشر الاوروبيين فانه يجد من الحكمة عدم تركها لكم.

وعند مقابلاتي للامام وجدته منشراح الصدر ولذلك انتهرت هذه الفرصة وطلبت إليه أن يسمح لى بالسفر إلى «سبأ» وقد اجابني اجابة ملتويه قائلاً: «ان وجودك هنا إلى جانبي يسبب لى سروراً عظيماً اشكر الله عليه فابق في صنعاء ما شئت واستمر في زيارة الضواحي والقرى الجميلة التي لنا فيها قصور جميلة تنزل فيها على الرحب والسعة كما بدا لك

ولكن هل تدعنى اذهب إلى «سبأ» ؟

ان السفر الى « سبأ » لمن اصعب الامور واشقها. فضلا عن أنه سيحرمنى من رؤيتك عدة أيام ولا يوجد هناك طريق تستطيع أن تسلكه . . . فهل من الممكن أن أدعك تسافر الى مكان لا توجد فيه طرق سهلة مأمونة ؟ . . . اننى أنا أيضا شديد الرغبة فى زيارة مدينة « سبأ » التى لا يزال يوجد فيها الى اليوم جزء من ذلك السد العظيم العجيب الصنع وربما تعجب اذا علمت أنه قد بنى بالحجارة المربعة وأن هذه الحجارة من ثلاثة ألوان ففيها الأخضر والوردى والرمادى وأنه يوجد على مقربة منه عمود قائم نقشت على جوانبه قواعد توزيع المياه التى كانت تروى الحقول التى كانت مصدرا لمعظم ثروة أهل سبأ الأمر الذى يدل على ان ملكهم كان يقوم على أحسن نظام وعند ذلك سألته قائلا :

وماذا فعل الله بالمدينة ؟

« عندما تحطم السور اجتاحت المياه المدينة التى أصبحت تغطيها التربة والطين . ولقد كانت هذه المدينة كبيرة عظيمة الاتساع شامخة البنيان امتلأت مساحة كبيرة منها بالأعمدة والأحجار المزخرفة . وأما ما استلقت النظر فيها أكثر من أى شىء آخر فهو عرش الملكة « بلقيس » وهو ذلك المعبد الكبير الذى أصدر « سليمان » عليه السلام أمره الى الجن بتشييده ملكة سبأ . ولقد صحت عزيمتى على اصلاح الطريق بين صنعاء ومارب وتمهيده بحيث تستطيع السيارات أن تسلكه وآمل أن يتم هذا العمل فى مدى سنتين . وعندئذ سوف اذهب الى سبأ وسوف ادعوك بمشيئة الله لمرافقتى اذا اردت ا »

* * *

ومن الممكن ان يرى الانسان فى متحف « ترمى » بايطاليا بعض آثار بلاد العرب الجنوبية وهى نقوش وشظايا وقطع هندسية صغيرة وتماثيل غليظة من الحجر عني بجمعها الدكتور أنسالدى أثناء اقامته فى مدينة « صنعاء » واستطاع نقلها بعد ذلك الى ايطاليا بموافقة جلالة الامام . على أن هناك مجموعة آثمن وأكمل من هذه المجموعة أودعها فى مدينة (عدن) شخص اسمه

(پارسی) كان يشتغل مدى خمسة وعشرين عاما في اليمن بجمع العساكر المرتزقة والعمال للدول المستعمرة . وقد أودعت هذه المجموعة في حانوت يفتح بابه على أحد الطرق الرئيسية . وترى في واجهته عينات لمنسوجات يابانية واسلحة قديمة دمشقية وقطع كبيرة من العاج وتمائيل صغيرة من المرمر . وفي داخل هذا الحانوت يوجد المتحف الذي لا يفتح الا للزائرين من ذوى المقام والذي يخل منظره الالباب ويهر العيون فقد ضم مجموعة من تماثيل من الرخام الأبيض والمرمر وحجر الجير لملوك (أوزان) كما احتوى على قطع فنية وتيجان أعمدة وقلائد وأساور وخواتم من ذهب وفضة ولافتات من البرنز وأحجار جامدة وجعارين . وقد صفت على أرفف الحانوت وكوايلها البيضاء بترتيب أحجامها وحسب ارتفاع كل منها تماثيل غليظة من الحجارة لملوك الذين حكموا اليمن من خمسة وعشرين قرنا من الزمان وقد استحضر الجانب الأكبر من هذه الأشياء من (أوزان) أو من (حضر موت) على أن فيها أيضا بعض آثار (سبأ) ومنها أيضا تمثال صغير لامرأة جميلة يؤكد صاحب الحانوت بانه تمثال ملكة (سبأ) التي قامت بتلك الزيارة التاريخية للملك سليمان !

وآثار سبأ قليلة بل ونادرة حتى في متحف صنعاء الذي نشأ جلالته الامام يحيى من أربعة أو خمسة اعوام في دار (الصنائع) الذي هو قصر الضيوف والذي تنزل فيه البعثات الاجنبية التي تزور اليمن . وقد اعتاد الامام من بضع سنوات ان ينقل الى احدى غرف قصر الصنائع الآثار التي تؤول ملكيتها اليه باى وجه من الوجوه . وقد تكسب معظم هذه الأشياء الدقة لعدم وجود أرفف او كوايل في الغرفة - في صناديق البضائع المستعملة لصفائح الغاز . وعندما يأتى أحد الزوار لمشاهدة المتحف يقوم الحارس بفتح الصناديق واخراج الآثار منها وصفحها على قواعد النوافذ لكي يستطيع الزائر رؤيتها والتمعن فيها وكثيرا ما يحدث في اثناء هذه العملية ان يقع احد التماثيل على بلاط الغرفة ويصبح هشيا وعندئذ يدفع الحارس بقدمه الكسور والشظايا

المتخلفة عنه الى ركن من اركان الحجرة دون ان يبدو على وجهه اى اثر للاسف او الاضطراب ولا يعلم الا الله وحده قيمة هذه التحف الحجرية التى جمعت من اطلال مدن بلاد العرب الجنوبية القديمة . وتبدو القطع الهندسية والآثار النذرية او الجنائزية والرسوم البارزة ذات اهمية عظمى للاجنبي اما التماثيل الصغيرة العديدة المصنوعة من الرخام او المرمر والتى تمثل رجالا ونساء فى اوضاع متشابهة اذ تمثلهم جالسين وكوع كل واحد منهم ملتصق بخصره ويداه ممدودتان الى الامام فانها تدل على فن أولى على أنه توجد فى متحف صنعاء أشياء عظيمة القيمة عثر عليها بفضل أعمال الحفر التى أجريت فى منطقتى غيمان ونخلة بأمر وتحت إشراف سمو الأمير سيف الاسلام أحمد . ولعمري ان التمثال البرنزى الكبير الذى عثر عليه فى جهة « نخلة » انما هو آية من آيات الفن فهو يمثل أحد الأبطال الأقدمين عارى الجسد له أعضاء متناسبة تمام التناسب ومما يؤسف له أشد الأسف أن العمال القايلى الخبرة قد هشموه فى اثناء عملية الحفر وليس فى اليمن كله من يستطيع القيام باصلاح هذه الأشياء النفيسة التى لاتقدر بحال . وقد جمع هذا التمثال وأوقف على قدميه ودعم بدوائم معدنية بعد أن جمعت كل أجزائه الى بعضها وربطت بأسلاك حديدية .

ولما كان ساعد التمثال الأيسر مفقودا ولم يكون الحارس للآن رأياً حاسماً عن الوضع الذى أراد التمثال أن يعطيه لبطله فانك تجد الذراع فى بعض الاحيان مرفوعا الى أعلى الرأس وأحياناً أخرى ممدودا الى جانبه .



ولقد طلبت الى اسحق بن موسى أن يصحبني الى بيوت « حى اليهود » التى تصنع فيها العاديات الزائفة لكى تباع فيما بعد باسم عاديات سبئية حقيقية فوضع الرجل يده على قابه ورفع عينيه الى السماء وصاح قائلاً :

« انك يا سيدى تطلب منى أن أريك شيئاً اذا صبح كان أعظم فضيحة لنا . ولكنى أعرف بدويا من بدو مدينة مارب يقتنى دائماً اشياء قديمة يبيعها للاجانب سرا وبدون علم الامام »

وفعلا ذهبنا سويا للبحث عن بدوى (مارب) فى كل مكان . ترى ماذا فعل الله به ؟ وفى أى مكان اختفى فقد مضت أيام وأيام ولا يعرف أحد عن أخباره شيئاً . ولما يتسنا من العثور عليه ولم نعد نفكر فيه ولا فى عادياته هانحن أولاء نقابله فى أحد الطرقات الصغيرة الموصلة الى المسجد الكبير قبل صلاة العشاء .

السلام عليكم !

وعليكم السلام !

وبعد التحيات المعتادة قبل البدء فى الحديث والسؤال عن الصحة وعن الحصول الى غير ذلك ندخل فى الموضوع ...

لقد كنا نبحت عنك يا صالح من عدة أيام لأن هذا الاجنبى يريد مشاهدة عادياتك فعليك بالذهاب اليه صبيحة الغد فى داره لكى تعرض عليه ما عندك منها

فاجابه البدوى قائلاً :

ليس فى استطاعتي الذهاب فى الصباح الى دار صديقك المحترم لأننى مسجون . . ولكن حارسى يفك قيودى بعد الغروب فى نظير (بقشيش) أقدمه له لكى يدعنى حراً طليقاً عدة ساعات من الليل . فاذا أراد صديقك استقبالى فى داره فانى على تمام الاستعداد للذهاب اليه فى المساء لأن لدى بعض التماثيل البرنزىة الجميلة التى سوف تسره كل السرور

وفى هذه اللحظة يقف عربى آخر لاستماع احاديثنا . كما يحدث دائماً . (وهل فى ذلك غرابة ؟) ولكن البدوى سرعان ما يقف عن الكلام ولما يرى أن ذلك الرجل الواقف لا يريد أن يتخرج من مكانه يقول لى .

سنعود الى الحديث عندما ينصرف هذا الرجل !

وعند ذلك ينظر العربي اليه نظرة كره واشمئزاز ويأخذ في السير في طريقه وهو يقول :

أنك لابد وأن تكون لصا مادمت لا تجرؤ على الكلام أمام الناس !
ولم يكن لدى صالح ما يرد به على هذا الكلام بل أخذ يحدثني عن الاشياء
الثمينة التي سوف يبيعها لي في الغد والتي لا شك في أنها صنعت كلها في
« حي اليهود » بمنزل اسحق بن موسى !

خاتمة

.... ودعت بلاد اليمن الخضراء الوداع الاخير في يوم من أيام الشتاء كان حره شواظا من نار . وكانت ريح الجنوب الشرقى الساخنة تداعب «السنابيك» وتجعلها ترقص رقصا متواصلا على صفحة الماء المتجمعة في ميناء الحديدة الصغيرة .

وكانت في انتظارى في عرض البحر خارج الميناء احدى البواخر الصغيرة الممقوتة التى تقوم برحلاتها عبر البحر الاحمر دون أن تحترم أى احترام أو تعمل أى حساب لمواقيت القيام أو مواعيد الوصول والتى يسافر الانسان على ظهرها دون أن يعرف على وجه التحديد فى أى مكان ولا فى اية ساعة تقف وتلقى مراسيها .

واذا كان الانسان لا يعيش فى اليمن المعيشة التى تحلوه ولا يحظى فيها بكل ما يشتهى فان أصعب من ذلك وأشق على النفس الوصول اليها أو الارتحال عنها ومع ذلك فانى لا أذكر بأنى سافرت فى رحلة كانت احب الى نفسى من رحلتى الى اليمن أو احسن منها .

وعندما تشرفت للمرة الاخيرة بمقابلة جلالة الامام يحيى لالتماس الاذن منه فى «السفر والعودة الى ارض الوطن تلتف — حفظه الله — معى كثيرا بان وجه الى كلمات كريمة تدل على شعور رقيق ونفس نبيلة وودعنى وداعا مؤثرا وأظهر نحوى عطفاً لن أنساء ما حييت . وان انس لا أنسى جلالته ساعة أن وقف يبتهل الى الله أن يشملى برعايته وتوفيقه وان يكتب لى السلامة .

وقد سلمنى «جلالته» «جواز سفر» مهورا بخاتمه العظيم مكتوبا على ورقة نثر عليها ذلك المسحوق الاحمر الذى اعتاد ان ينثره على كل مايكتب .

وقد نقش على هذا الخاتم اسم جلالته والقابه « يحيى بن محمد حميد الدين أمير المؤمنين المتوكل على الله » كما كتب عليه نص جواز المرور الذي يبتدىء باسم الله الرحمن الرحيم وهو : « لا بأس من سفر فلان (وهنا يذكّر اسم المسافر ولقبه وجنسيته) فلا يمترض عليه . »

وفي الحق ان الاعتراضات على سفرى لم تكن منتظرة ولم يكن لها أى أثر بفعل هذا الطلسم العجيب فان هذه الورقة التى وقع عليها جلالته بالخاتم الاحمر كان لها فعل كفعل السحر اذ كانت تخلق أمامى جميع الطرقات وتفتح فى وجهى كل الأبواب فى أسرع وقت وفى لمح البصر .

وداعا أيها اليمن الجميل !

وداعا أيها الشعب الوادع اللطيف !

وداعا أيها العساكر الظرفاء !

أتى لا أستطيع الا أن أقول لكم ان السفر ومبارحة بلادكم الجميلة المحبوبة بلاد السحر والاحلام تسبب للانسان الأسف والحسرة وتجعله يشعر بيقظة مزعجة مكدره لان من يسعده الحظ بزيارة بلادكم والاقامة فى مدنكم الجميلة الفاتنة المنقطعة النظير ليخيل اليه أنه كان مستغرقا فى حلم عجيب لذيذ يود لو لم يستيقظ منه وأن يبقى مستغرقا فيه الى ما شاء الله !!!

❖ انتهى ❖

صواب	خطأ	سطر	صحيفة
الزيتونية	الزيتونة	١٢	٣
ظاهرة	ظاهر	٦	٨
ليجعلها	ليجعلها	٧	١٣
في هدوء	هدوء	١٩	٤٥
حراز	الحرس	١٠	٤١
أسوار	سوار	١٠	٤٣
وجعلت	وجاعت	٢٤	٦٢
ذهبية	ذهية	٣	٦٤
ومثار	وثار	٨	٧٦
ولذلك	ولذلك	٦	٧٩
من	مق	١٨	٨٢
بنقل	ينقل	١٦	٨٦
نواس	نحواس	٢٠	٨٧
ترحوا	ترحوا	٢٥	١٠٥
لذيذا قدم	لذيذا قدم	١٨	١٠٦
مبسمة	مبسمة	٤	١٠٩
الامام	الامامى	١	١١١
منهم	عنهم	٧	١١١
وقد	رقد	١٢	١١٢
حظر	خطر	٨	١٢٠



LIBRARY
OF
PRINCETON UNIVERSITY

Princeton University Library



32101 073552315

(NEC)

DS247

.Y45

F389

1947